إليـك أيهـا القـاريء الكـريم في الفصـول الآتيـة تخطيطاً جغرافيـاً، وصورة طبيعية للمناطق التي عاش فيها الإباضية ولا يزالون يعيشون.

زُوَاغَة

" زواغـة " مدينة عظيمة تقع غربي طرابلس بنحو خمسـين كيلو مترا على شاطى البحر، ويطلق عليها اليوم اسم " صبرانه " وإلـى هذه المدينة كان يرجع أكثر السـكان البداة في السـهل المنبسـط بين البحر والجبل. هذا السهل الغني بالثروتين الزراعية والحيوانيـة، وفـي هذه المدينة نشـأ عـدد غير قليل مـن العلماء الأعلام، الذين كانوا يحافظون على رسالة الإسلام، ويبلغون دعوة الله، إلى الأحياء الضاربة في ذلك السهل الفسيح فيواصلونهم بالدروس والتفقيه في دين الله لا يكلون ولا يفترون من أمثال أبي الخطاب وسيل بن سنتين بن يزيد، وأبي بكر بن يحيى، وأبي موسى عيسـى ابن السـمح، ويزيد بن يخلف، ويخلف بن يزيد، وعشرات غيرهم، ولو لم ينشـأ في هذه المدينة العظيمة من كبار العلماء إلا أبو الخير لكفى ...

عاش أبـو الخير توزيـن الزواغ 55فـي القرن الرابـع، وقد كانت طرابلـس تحـت حكم الدولـة العبيديـة، أما جبل نفوسـة فقد كان مسـتقلا بحكمه، وكانـت مدينة زواغـة كغيرها من المدن

التابعة لتلك الدولة الظالمة ترزح تحت اعباء الضرائب الباهظة، والاستغلال المشين، وكان أبو الخير الزواغى رجل علم ودين لا يأبه للدنيا ولا يملك منها فجاءه يوماً عامل 56الحكومة الظالمة يطالبه بدفع مائة دينار للدولة، وفكر الشيخ العالم طويلا ثم استمهل العامل وصعد إلى جبل نفوسة، وقصد إلى صديقه المخلص أبا علي الفساطوي فأخبره الخبر، فقام أبو علي وأحضر إليه مائة دينار ثم قال له : ادفع عنك الأذى.

ورجع أبو الخير إلى زواغة ودفع المال إلى العامل الظالم، ولكن العامل بداله، فلم يلبث أن انتشرت رسله تبحث عنه في كل وجهة، وأرشدهم الناس إلى مصلى أبي الخير على شاطئ البحر حيث يفرغ من دنيا الناس ليناجي ربه، فما وصلوه حتى ذهبوا به إلى العامل، فقال العامل للشيخ خذ مالك. وأخذ الشيخ المال وصعد إلى الجبل ليرجع المال إلى صاحبه أبي علي، فقال أبو علي : ما كنت لآخذ مالا أعطيته لله، واحتار أبو الخير مرة أخرى من هذا المال، فهذا العامل الظالم يفر منه بعد أن أخذه، وهذا صاحبه أبو علي يمتنع من استرداده، أفيحفظ به هو ؟ ...

وأشرقت في قلبه المؤمن فكرة.. إن هذا المال لله، ويجب أن يفرق على عباد الله، ووقف أبو الخير يفرق المال على الفقراء والمساكين، لا يمسك منه لنفسه ديناراً ولا درهما.

عرض أبو علي على أبي الخير أن يقاسمه - ماله وكان صاحب ثروة عظيمة - فقال أبو الخير مستنكراً : ما أريد بمالك يا أبا علي ؟.

إن أبا الخير لو أراد أن يملك مالا لسلك السبيل التي يسلكها طلاب المال، ولكنه لا يقيم للدنيا وزنا ولا يجعل لها حساباً.

كان أبو الخير لا يفتأ بين زواغة وجبل نفوسة، ماراً بهذه الأحياء الضاربة في السهل الفسيح، يفصل مشاكلها، ويعلمها أحكام دينها ويأمر بمعروف هي في حاجة إليه، وينهاها عن منكر برز بسبب الجهل بدين الله..

وكان لا يطيل الإقامة لا في الجبل ولا في زواغة، فقد كان يضع حديدة في رف عندما يدخل زواغة، ويتفقدها من حين إلى حين، فإذا وجد أن صدأ بدأ يعلوها قال : هذا الحديد قد صدأ أفلا تصدأ القلوب ؟ !.. ثم يسافر ليزيل الصدأ عن قلبه وقلوب إخوانه المؤمنين : إما في الطريق وإما في الجبل، فيفيد علما وخلقا ودينا ويستفيد ...

شكا إليه بعض الناس حاله فقال : أشكو إليك من قلب قاس، وعقل لا يفهم، ولسان لا يسأل، وبدو لا يخشع، ويد لا تعطى، ورجل لا تزور...

فقال أبو الخير : دواء الست بالست : محبة المسلمين، وقراءة القرآن، والتضرع إلى الله عند السحر، وقيام الليل، والصيام، وزيارة المسلمين57.

هذه هي " قائمة الأدوية " التي اعطاها هذا الطبيب النفساني لهذا المريض. وهذا الجواب يكفي للدلالة على منزلة أبي الخير في العلم والدين وفهم أسرار النفس البشرية.

هذا رجل يشكو من قساوة قلبه فما هو العلاج ؟.. قال أبو

الخيـر إن القسـاوة لا تعالج إلا بعاطفة مضـادة لها، وهي الحب، وهـل تبقى قسـاوة في قلـب ممتلئ بالحب ؟. وأى حـب يا ترى هذا الذي تعالج به قساوة القلوب ؟

إنه الحب الذي يتسـع للناس : الحب الذي يغمر المسلمين، الحب الذي يرتكز على الخير والفضيلة.

وشكا إليه عقلا لا يفهم، فماذا قال أبو الخير ؟.. لقد قال : إنه لا يفتـح مغاليق الفهم ويبعث كوامن الذكاء مثل قراءة القرآن الكـريم، والتدبر في معانيه، ورياضة الذهن في مجاله الفسـاح، والعقـل الذي تصقلـه الآيات من كتاب الله سـوف يشـع لهم مـا في الكون مـن الآيات والعبر، وما يجري فـي الحياة من أعمال البشـر ؛ أما اللسـان الذي لا يسأل، اللسـان الخجول أو الكسول الذي ينعقد في فم صاحبه، فلا ينطلق لبحث المشاكل والحديث عما تكنه القلوب، هذا اللسان وصف له أبو الخير علاجاً ناجحاً، لا للسـان فقط، لكنه لجميع أمراض القلوب قال أبو الخير : إن علاج هذا اللسـان هو التضرع إلى الله عند السـحر، فـي هذا الوقت الساجي الساكن الذي يهمد فيه الطبيعة، وتموت الحركة، يتجه لسـان المؤمن إلى عالم الخفايا، والأسرار فيبثه من حاله، ويشكو إليه سـوء الحالة، ويطلبه المغفرة عما ارتكب، فإذا تعود الكشف عن حاله لربه سـهل عليه حينئذ أن ينطلق متحدثا مع الناس لا سـيما عندما يجد أقوالا أو أعمالا لا يعرف حكمها عند الله، ولا يعرف ماذا يقول عنها لربه وهو يناجيه في السحر منفرداً.

إنـه لا يلبث أن يقبل إلى أولئك الذين رزقهم الله علما وفهما

يستوضحهم المشاكل ويستفهمهم عن التوازن.

وسـأله الرجل عن عـلاج بدن لا يغمره الخشـوع ؟ فوصف له الـدواء قـال أبو الخير إن عـلاج البدن الذي لا يخشـع إنما هو قيام الليل، ينهض المؤمن في وسط الليل وقد همدت الحياة في الكون وكف كل شـئ عن الحركة، فيتوضأ المؤمن ويحسـن وضوءه، ثم يسـتقبل القبلة ويقف للصلاة، إنه لا شـئ أبعث على خشـوع البـدن من هـذا الموقف الـذي يقف فيه الإنسـان بين يـدي ربه منفرداً لا يستشـعر حركة، ولا يقف إلـى جانبه حي فيصلي ما شـاء الله، وقبله معلق بالسـماء، ونظره لا يمتد إلى ذراع، فتسري في هذا البدن الواقف في الظلمة قشـعريرة الخوف، وقشـعريرة الاطمئنـان، الخوف من عذاب الله، والاطمئنان إلى رحمة الله، فإذا تعود الإنسان على هذا الإحسـاس المنفرد الذي يجرده من علائق الحياة بقيام الليل أصبح بدنه مركزاً لهذه القشعريرة كلما وقف بين يدي ربه للعبادة، وقد علم تبارك وتعالى أثر قيام الليل

على نفـوس وأبـدان بني الإنسـان، فأوجبه علـى خير خلقه عليهم السلام، وقد فرضه الله سبحانه وتعالى أول ما فرضه على رسـوله عليه السلام، وعلى أصحابه الكرام واستمر ذلك القرض سـنة كاملة، وكان الرسـول صلـى الله عليه وسـلم والمؤمنون حراصاً علـى القيام بهذا الفرض، حتى تورمت أقدامهم، وأصبح خشوع أبدانهم طبيعية ثابتة فيهـم عند ما يقفون أمـام جلال الله، ثم خفف الله عنهم، وجعله تطوعاً.

وإنه لمما يناسـب هذا المقام ما قاله الأخ المسلم سيد قطب

فـي كتابه القيـم "في ظلال القرآن " الجزء التاسـع والعشـرون صفحة 179 :

" إن مغالبـة هتـاف النـوم، وجاذبية الفراش بعـد كد النهار، أشد وطئاً وأجهد للبدن، ولكنها إعلان لسيطرة الروح، استجابة لدعـوة الله، وإيثـاراً للإنـس بـه، ومـن ثم فإنهـا أقـوم قيلا، لأن للذكـر فيها حلاوته، وللصـلاة فيها خشـوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وأنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً، قـد لا يجدها في صلاة النهار وذكـره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسـرب إليه، وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واسـتعداداً وتهيوء، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه ".

لقد شـرح الأسـتاذ قطب هذه النقطة التي أشـار إليها أبو الخيـر بما فيه الكفاية، فإن قيام الليـل أجهد للبدن، ولكنه إعلان لسـيطرة الروح عليه، وهل الخشوع إلا سيطرة الروح على الجوارح وتحكمها في زمام الإرادة ؟ ...

أما اليد البخيلة التي تستمسـك بالمال وتشح ولا تسخو به على من يسـتحق المال، فإن علاجها نـوع آخر من العبادة، قال أبو الخير : إن علاج اليد التي لا تسخو بالمال، ولا تنفق في الخير إنما هو الصيام ...

الصيام : هذه الرياضة الروحية التي ترتفع بالإنسـان عن أدران المادة، وتخلق به في سـماء الملائكة، جاعلـة منه مخلوقاً لا ينظر إلى المال إلا على أساس أنه نعمة من النعم الكثيرة التي أودعها

الخالق الحكيم على الأرض، لتستفيد منها الإنسانية جمعاء، ولا يسـتأثر بها شخص عن شخص، ولا ينفرد بها إنسان دون إنسان، لأنهـا من حق الجميع، فإذا وضعت الأقدار بعض هذه النعمة بين يدي إنسان، فليس من حقه أن يحبسها عن عباد الله إلا بمقدار ما عنده من حاجة إليها، الحاجة الحقيقة الحاضرة، لا الحاجة البعيدة التي يقدرها ضعاف الإيمان لما اسـتتر في الغيب، وعندما يسـمو الإنسـان بتفكيره عن أوضار الحيـاة، ويترفع عن قيود المادة، يصبح عنده امتلاك المال والشـح به رذيلة من الرذائل التي تتطهر منها النفوس الزكية.

وإذا كان الإنسـان إنمـا خلق ليقطع مرحلـة الحياة بما خف من زاد، لا يثقـل على الظهر أو الفكر، ثم جرب من نفسـه فوجد أنه يسـتطيع أن يقطـع نصف هذه المرحلـة دون زاد أو مـال عندما يلتجـئ إلـى الصوم، هذه الطهـارة الروحية التي تسـتغني عن النفقات نصف اليوم، إذا جرب من نفسه ذلك، ووجد عنده الإرادة، والقوة فلماذا يستمسك بالمال ويحرص عليه ؟ ...

ثـم إن هذا المال الذي يجده الإنسـان بين يديـه يتكاثر وينمو، حيناً بالكسـب، وحينا بدون كسـب، إنما هو ضـرورة من ضروريات الحيـاة يحتاجها الغيـر، فلماذا لا يدع له هذا المـال أو بعضه، إنه ليس من حقك أيها المؤمن أن تبيت شـبعان ويبيت جارك جوعان، فـإذا كان هذا المـال لا يمكن أن يكفي اثنين فلمـاذا لا تصوم أنت وتـدع جارك يأكل مما عندك من مـال الله ؟ إنك لو فعلت فتقربت إلـى ربك بالصوم وتقربت إليه بالصدقة وأنت في نفس الوقت لا تستكثر التضحية ولا تسـتكثر ما قدمت من عمل كنت جديراً

بأن تعالج شح نفسك، وتعود يديك على الانطلاق والبذل ...

هذه بعض المعاني التي يوحي بها الصيام إلى أولئك الذين يلتجئون إليه، ليرتفعوا بأنفسهم في مدارج الكمال والرقي ...

ويخمدوا في أنفسهم همسة الغريزة : غريزة الجمع التي تحرص عليها اليد، أو غريزة الشهوة التي تنطلق إليها الأعضاء ...

بقي لنا السؤال السادس من الأسئلة التي وجهت إلى أبي الخير، فأجاب عنها إجابة المؤمن العليم بأسرار الإسلام، وأسرار النفوس البشرية ...

قال أبو الخير: أما الرجل التي لا تزور: فعلاجها من نفس الدواء، ويتوقف على قوة الإرادة وصحة العزيمة والارتفاع عن الصغائر، فقد يكون امتناع الرجل من الزيارة، زيارة الأهل أو زيارة الأقارب، أو زيارة المرضى، أو زيارة المسلمين، أو زيارة من لهم عليها حقوق. قد يكون ذلك الامتناع ناشئاً عن حادثة تافهة، أو كلمة نابية، أو استثقال ظل، وعلاج هذا المرض إنما هو في حمل هذه الرجل على زيارة المسلمين، وعندما تزور أخاً في الله، فتجد منه ترحيباً وإيناسا ومحبة، يشجعها ذلك، وتعاود الزيارة، فإذا عادت ووجدت كما وجدت من قبل إقبالا وتفهما ومشاركة، كان ذلك باعثا لها على موالاة الزيارة على أن الزيارة التي تحسب في هذا المقام إنما هي الزيارة في الله لله.

فإذا دخلتها مقاصد المصلحة العاجلة فإنها حينئذ لا تفيد في علاج النفوس.

إن الأمراض النفسية لا تعالج إلا بالمعاني الروحية، فإذا

دخلتها فكرة المادة فسدت وأفسدت ...

هذا تعليق بسيط على أجوبة أبي الخير للرجل الذي سأله عن بعض أمراضه النفسية، وشكا إليه ما يحسه من آلام الروح ...

لم أردها إيضاحا، ولكني حاولت أن أجعلها في قالب تفصيلي يتمشى مع أسلوب هذا الكتاب.

وإني لأعتذر للقارئ الكريم إذا أضعت شيئاً من وقته ولم أساعده في فهم ما يرمى إليه الفيلسوف العظيم ...

وأعتذر إلى أبي الخير إذا حملت كلامه على غير ما يريد بسبب قصوري وضعفي ...

ثم أستغفر الله من الخطأ والزلل ومجانبة الصواب ...

زوارة والتيجاني

أرى أنه يجب على أن أعود مرة ثانية إلى الحديث عن زوارة والتيجاني، ذلك أن كلام الرحالة التيجاني في حاجة إلى مناقشة من بعض الجهات.

وأنا حين أناقش التيجاني أعلم تمام العلم أن هذا الرحالة قام برحلته وهو في ركاب أمير يقوم بخدمته، ويسعى إلى مرضاته، ويتلقى منه الإحسان والعطايا، وأعلم كذلك أن لهذا الرحالة ظروفه وبيئته وجيله، وأعلم مدى تأثر هؤلاء الكتاب الذين يقومون مقام الصحافة الموجهة اليوم، فيبسطون الدعاية، ويسبقون الرغبة، ويلتمسون وسائل الرضا.

إنني أعلم كل ذلك، ولست أطلب من الرحالة الكبير أن يكتب

فـي ذلك العصر بروح هذا العصر، ولكنني مع ذلك أستطيع أن أجد كثيرا من الحقائق التي تنكشف عند التأمل النزيه، والنظرة المنصفة.. ولقد نقلت كلام التيجاني في الفصل السابق عن أهل " زوارة " الكرام، والنقاش الذي دار بين الرحالة الكبير وبعض علماء هذه المدينة التي سماها " زوارة الصغرى "، وقد أطال التيجاني في مناقشة مسألة واحدة مما دار فيه الجدل بينه وبين عبدالرحيم الزواري ؛ هذه المسألة هي المسح على الخفين.. وذكر في بحثه الطويل : أن عدم جواز المسح على الخفين قول مروي عن الإمام علي بن أبي طالب، وأنه مذهب الشيعة، وأنه قول الإمام مالك في رواية عنه، ثم عقب على هذا البحث بأنه لم يصح عن الإمام علي. وقال في الرواية الواردة عن الإمام مالك: أنه يجب أن لا تحمل على ظاهرها، وذكر أنه من صحح الرواية عن مالك تأولها، ويختم هذا البحث الطويل بقوله :

" وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول، وقد نصوا على تفسيق من قال به، وقول هذا الزواري : أن هذا من أخبار الآحاد، ليس كذلك، فقد نص الأئمة على أن هذا الحكم مما ارتفع عن خبر رتبة الآحاد، ووصل إلى رتبة التواتر. "

إني أدع التعليق على مسألة المسح على الخفين، فإنها مسألة فقهية فرعية يختلف فيها علماء المذهب الواحد فضلا عن علماء الأمة جمعاء، ودعوى التيجاني الإجماع فيها قد نقضه هو نفسه بنقله لخلاف الشيعة والإمام علي والإمام مالك والخوارج، ومن ذهب مذهبهم.

فلندع هذه المسألة لعلماء الفقه والحديث، فقد اشبعوها بحثاً ومناقشة، على أنه مما يستلفت النظر في هذه القضية : أن التيجاني هو الذي التمس الاجتماع بالشيخ الزواري، وعمل من أجل ذلك، وكان مفهوماً بطبيعة الحال أنه لم يبحث عنه ويعمل للاجتماع به إلا ليجري معه في حلبة الجدال، وجاء عبدالرحيم الزواري وكان شيخاً وقوراً، حسن السمت، مجتهداً في العبادة، مشاركا في طرف من العلم - بشهادة التيجاني نفسه - وبدأ النضال بين الرجلين، فجرى أولا في أصول المعتقد، ثم انتقل إلى بعض الفروع، حتى جرهما الحديث إلى المسح على الخفين.

لماذا يا ترى حرص الرحالة العظيم أن ينقل محضر النقاش الذي دار بينه وبين عبدالرحيم الزواري في مسألة فرعية هي المسح على الخفين - وقد جرى فيها الحديث عرضاً - وسكت عن أصل النقاش وموضوع الجدال في أصول المعتقد التي قال : إن الحديث جرى أول ما جرى فيها ؟ لماذ لم يذكر لنا التيجاني حججه وحجج خصمه، وما سأل وأجاب به كل واحد منهما، كما فعل في مسألة المسح على الخفين ؟..

فهل وصل الرجلان إلى اتفاق ؟ أم أن هذا الزواري الوقور الحسن السمت المجتهد في العبادة، استطاع أن يلزم صاحبه الحجة، وأن يفوز عليه في ميدان المناظرة، فسكت العلامة الرحالة عن نقل هذا الحقائق المؤلمة، واكتفى عن كل ذلك بكلمات من السباب وجهها إلى زوارة، وعلماء زوارة، ثم عوض عن هذه السكتة بالانطلاقة الطويلة في قضية المسح على الخفين ؛ هذه المسألة التي وجد فيها مجال القول أوسع، وميدان الحديث والتعليق أفسح.

بعد هذا أريد أن أرجع من جديد إلى ما نقلته لك في الفصل السابق من حديث التيجاني، وأرجو من القاريء الكريم أن يقرأه معي بإمعان وتدبُّر، ثم يشطب من ذلك الحديث كلمات السب التي لا تعنى شيئا من حقائق الحياة والتاريخ، ويقرأ بعد ذلك ما كتبه التيجاني عن أهل زوارة، فإنه سوف يجد الحق الصراح في ذلك، وها أنا أنقل ذلك الكلام، واضعاً خطاً تحت كلمة السباب التي يجب حذفها ...

قال التيجاني : " وأهلها قوم من الخوارج الغلاة في مذهبهم، موصوفون بتصميم في دينهم، وأمانة فيما يودع عندهم، مكفرون بمواقعة الذنوب، ورأيت منهم أقواماً قد نحلت من العبادة أبدانهم، واصفرت ألوانهم، بانين في ذلك على هذا الأصل الفاسد، من تكفير العصاة على ما تقدم بيانه عند ذكر جربة، وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبد الرحيم الزواري، وجميعهم يعظمه ويقدمه،رئاسة وسنا وصلاحاً، بزعمهم، اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً في العبادة، وحسن السمت، إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله، وخسر حاله ومآله، وتوسمت في أحد من وصل معه الطلب فتكلمت معه، فوجدته قد شارك في طرف من العلم. "

إنك لو نزعت الكلمات التي تحتها خط والتي هي سباب لا مبرر له، لوجدت التيجاني يقول في سلاسة ووضوح هكذا. " وأهلها قوم ... موصوفون بتصميم في دينهم، وأمانة فيما يودع عندهم ... ورأيت منهم أقواماً قد نحلت من العبادة أبدانهم، واصفرت ألوانهم، وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف

بعدالرحيم الزواري، وجميعهم يعظمه ويقدمه رئاسة وسنا وصلاحاً ... اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً في العبادة، حسن السمت، فتكلمت معه، فوجدته شارك في طرف من العلم. "

إن شهادة التيجاني على زوارة وأهل زوارة هي هذه، فهذا ما رأى وهذا ما سمع، وهذا ما يحق لنا أن نأخذ منه، أما رأيه في القوم ومعتقدهم فذلك موضوع ليس من اليسير أن يتحدث عنه التيجاني في ذلك العصر المشحون بالتَّعَصُّبِ ...

على أننا نعود إلى مناقشة آراء التيجاني – حتى في هذه المواضيع – لنرى مقدار ما عند التيجاني من الحق ...

ويصف التيجاني أهل زوارة وجربة وغمراسن وكثيرا من الجنوب التونسي بأنهم خوارج يستحلون أموال المسلمين ودماءهم، وأنهم يحكمون بتكفير العصاة، وأنا حين أناقش التيجاني في هذا الصدد احترز بعض الاحتراز، فقد يكون التيجاني اجتمع ببعض الخوارج أو ببعض الناس الذين ينتسبون إلى الإباضية ولكنهم ليسوا كذلك، في رحلته الطويلة بالجنوب التونسي، ومع ذلك فيمن المعروف في التاريخ أن الجنوب التونسي، وجزيرة جربه، والقطر الليبي، كان عامراً بالإباضية، وتاريخ الإباضية في هذه البلاد معروف، قواعد مذهبهم معروفة أيضاً، ولن يجد التيجاني أو غير التيجاني دليلا واحداً عليهذه الدعوى، فالإباضية أبعد الناس عن الخوارج، وأشدهم عليهم، ولعل من أعظم ما يؤخذ به الإباضية فرق الخوارج المختلفة : هو استحلالهم لأموال المسلمين ودمائهم، فزعمه أن الأباضية خوارج غلاة في مذهبهم

زعـم باطل من أساســه، ولقد يكون التيجاني نفســه أقرب إلى الخــوارج مــن الإباضيــة، فهو حين يجلــس على موائــد مخدومه : تلــك الموائــد التي حفلت بأنــواع الطعام المغصــوب، إنما يعمل عمل الخوارج، وإن لم يقل قولهم، وجريمة العمل أعظم من جريمة القول ... وإلا فبأي حق اســتحل تلك الأمــوال التي تغتصب من قوم يشــهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورســوله وأن ما جاء به حق من عند الله ...

أما النقطة الثانية التي شــنع بها التيجانــي على أهل زوارة فهــي تكفير العصاة، ولو أتيح للتيجانى أن يزداد دراســة، ويطلع علــى كتب الشــريعة الإســلامية وأبحاث علمائهــا الأعلام، بل لــو رجع إلى دراســة كتــاب الله وتفهمه تفهما عميقــاً لما حمل نفســه هذا العناء، ولوجد أن كلمة الكفــر تطلق عليالمعصية، وأن الإباضية حــين يطلقونها في هذا الباب فهم يعنون ما عناه المشرع الحكيم في كثير من آيات الكتاب، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وســلم، ولا يحكمون مطلقا بالشرك عليمن آمن بالله، ولــو لم يتبــع إيمانه عمــلا صالحا ... وأن هنــاك فرقاً كبيــراً وبونا شاسعاً بينهم وبين الخوارج.

ومــن هذا يتضــح أن عنف التيجانــي وحنقه الشــديد على الإباضية، وحكمه على الشــيخ عبدالرحيم بخسران الحال والمال، إنما ينتج عن عدم فهم وقصور علم.

وقد مضى التاريخ بالرجلــين وطواهما فيما طوى، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستخلص من حديث التيجاني عن زوارة حقائق

هامة تتلخص فيما يلى :

1 - كان أهل زوارة في أواخر القرن الســابع وأوائل القرن الثامن قومــاً مستمســكين بدينهــم حراصــاً عليــه محافظــين، على الأمانة، جادين في طاعة الله.

2 - كانــت الحركة العلميــة عندهم في ذلك الحين لا بأس بها، إذ يوجد عندهم مثقفون يشــاركون في فنــون الثقافة المعروفة في ذلك الحين.

3 - يكونون مجتمعاً ضيقاً، ولكنه متماســك متآزر، يأنف من الذلة ويكره الاستعباد.

4 - تعتمد حياتهم الاقتصادية على الزراعة.

5 - كان لهــم علمــاء عظام، يصمــدون للجــدال، ويقارعون الرجال، ويدافعون عما يعتقدونه حقاً ببلاغة وبرهان.

هــذه حقائق ثابتة نســتخلصها من التيجانــي الرحالة الذي خدم ابن اللحياني بــكل ما لديه من علم وحذق وذكاء، ومهد له إلــى الملك، ثم عصفــت به عواصف الحياة، وقلبــت له ظهر المجن، فطوحت بــآل التيجاني جميعاً في مطاوي النســيان، قرابة قرن من الزمان58.

الشيخ سَعيد بن صالح بن زيد

فــي زُوارَة الجميلــة الضاحكــه، على شــاطيء البحر الأبيض المتوســط، نشأ العلامة سعيد بن صالح بن زيد. وإنه ليسرني أن أدع المجــال في هذا المقام للشــيخ عريبي العزابي، يحدثنا عن هذا

الرجل العظيم، الذي استطاع أن يربط صلة الأخوة والمحبة بين المتنافرين، ويوصل حلقات التزاور بين المتباعدين.

قال الشيخ عريبي : " إن حياة الولي سيدى سعيد بن صالح – نفعنا الله ببركاته – حسب التحقيق. والأخذ من المصادر الموثوق بها. كانت في أوائل القرن العاشر الهجري، أى منذ أربعمائة وثلاث وخمسين عاماً تقريباً ...

أما سيرته في حياته كان رحمه الله رجلا صالحاً وعظيما عند عموم الإباضية، مسموع الكلمة، يرجع إليه العامة في جميع الأمور، وعندما تقع المنازعات،تفصل أمامه حسب إشارته ورأيه، كما هو معهود فيه من القيام بالمصالح، والسيرة الحسنة، حتى اشتهر بالصلاح وحب الخير، في عموم أقطار الإباضية كجربه والجبل الغربي، وزوارة، وبني ميزاب، وغير ذلك، فاتخذته العامة قدوة يقتدون به في أمور دينهم، ومرجعاً لهم لمصالح دنياهم، وتوجهت إليه الأنظار، ومالت إليه القلوب من جميع الأطراف.

وكان رحمه الله قدوة في حياته، أفنى وقته في إصلاح ذات البين، وجعل مرامه السعى في رضا الله، وراحة عباده.

كانت زوارة في حياته مقسمة إلى بلدين عظيمين : أحدهما " زُوَارَة ولُّول" وهي هذه العامرة، والثانية : هي " زوَارة وَزْدَر " وهي في وجهة سيدى علي، وطالما تصدر بين البلدين مناقشات تؤدي إلى القتال بينهما، ابتدأت هذه المناوشات قبل حياة الشيخ، ثم امتدت إلى زمانه، فلما رأى الحالة سيئة بين إخوانه بادر رحمه الله بهمته العالية إلى إخماد نار الفتنة بين إخوانه، وإصلاح

ذات البين بينهم، فجمعهم مراراً، وصار يعظهم، ويرشدهم إلى الاتفاق والاتحاد، حتى وفقه الله بسبب إرشاداته ونصائحه، فأمر رحمه الله جميع بلدان زوارة من هنا ومن سيدى علي بالاجتماع كل عام، في الموضع الذي فيه ضريحه الآن، بنية الزيارة، وعند إجتماعهم هناك يقوم بإلقاء النصائح، ينهاهم، ويحبب الاتحاد والتضامن، إلى أن صارت زوارة سيدى علي، وزوارة ولول على قلب واحد بسبب هذه الزيارة التي يجتمع فيها العموم، وقيامه بينهم بالإرشادات النافعة في دينهم ودنياهم، وحيث أن هذه الزيارة أسست على خير البلاد، وراحة العباد، استحسنتها الأوائل، وتركتها لعقبهم خلفاً عن سلف، سيما وأن الشيخ سيدى سعيد من عظماء الإباضية المشهورين بالصلاح، فجميع ألإباضية أينما كانوا يعتقدون فيه الصلاح، فعملوا له مزارات في جل البلدان، أعظمها مزار ضريحه الذي يحق لنا احترامه بجميع ما يليق بمقامه العظيم، وله مزار في جربه، ومزار في وادي ميزاب، وفي جهة الجبل الغربي، وكان هذا المزار موسماً في كل عام لدى جميع الإباضية، إحياء لذلك الشعار الموسمي لما فيه من المواعظ الوثيقة، واتحاد الكلمة، حتى كان البلدان بلداً واحداً، على قلب واحد. لا شئ يحط من كرامتها أمام الأمم المخالفة لهما.

وصارا أخوين على سرر متقابلين، يدور بينهما كأس سلسبيل ... وصارا عصبة واحدة ضد من يضمر لهما شراً ...

وإذن يجب على زوارة ولول اليوم الزيارة كل عام إلى هذا الولي الصالح، إحياء لذكراه، وما كان عليه من إصلاح ذات البين ".

هذا ما كتبه الشيخ عريبي العزابي عن المصلح العظيم، وليس لي ما أضيفه غير ملاحظة عابرة، تتعلق بجانب من جوانب الموضوع.

لقد بذل المصلح الكبير العلامة سعيد بن صالح بن زيد جهوداً جبارة، حتى استطاع أن يجمع بين المتخاصمين اللذين أوصلهما سوء التفاهم إلى القتال، وتمكن من جمع القلوب على الصفاء والمحبة، اتخذ هذا الاجتماع مؤتمراً سنوياً يعالج فيه الناس مشاكلهم الدينية والدنيوية، وهذا عمل عظيم، وإذا استمر على هذا المنوال يجتمع فيه أبناء الأمة لهذا الغرض العظيم، يستعرضون مشاكلهم، ويحاسبون أنفسهم، ويقومون أعمالهم، ويرسمون خطوط السير للسنة المقبلة، إذا استمر هذا الاجتماع على هذا المنوال، فإنه يكون عملا عظيما، يحقق أحسن النتائج ... ولكنه إذا انحرف عن هذا المغزى الكبير، وأصبح مظهراً للفخر والظهور والإسراف والتبرك بقبور الأولياء الميتين، يتسابق إليه الناس بالتبجح وإظهار الغنى ووسائل الترف، من خيول مذهبة السروج، وسيارات فخمة من أحدث ما أنتجت مصانع أوربا وأمريكا، إذا انحرف هذا الاجتماع إلى المنحى البعيد عن روح الإسلام وسُمُوّه، فإنه يكون حينئذ مرضاً اجتماعياً من الأمراض الخطيرة، التي يجب معالجتها، والقضاء عليها.

إنني لم أحضر هذه الزيارات التي يقوم بها أهل زوارة الكرام إلى سيدى سعيد، ولكننى أعرف عدداً من المزارات ترتكب فيها أعمال يبرأ منها الإسلام، بل إنها تكون موسماً من مواسم الرذيلة، تستباح فيها الحرمات، ويختلط فيها الحابل بالنابل،

ويقصدها الفجار من الأماكن البعيدة، ظاهراً بقصد التبرك وباطناً لما فيها من متعة العين والنفس وما يتبعهما.

وإن الصالحين من المسلمين الأحياء منهم والأموات، يبرءون من أولئك الذين يتخذون قبورهم أو مصلياتهم وسيلة لارتكاب المنكر، والبعد عن دين الله.

إن ذكرى الصالحين والأولياء، هي أن نقوم بالأعمال التي يدعو إليها الإسلام، ونقف عند حدوده، فإذا استطعنا أن نسير في هذا المنهاج فقد أحيينا ذكراهم، ومجدنا بطولتهم، إن الإسلام دين تذوب فيه الفردية وتقديس الرجال، ولقد جعلت لنا الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما من شخص مهما بلغ من التقوى والصلاح يحول بينها وبين الاتجاه إلى هذا الرجل العظيم والأقتداء به، وعلى هديه نلتقي، ومن صفائه نستقي، ومن نوره نقتبس. لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم كتاب الله وسنة نبيه بين أيدينا، ترك كتاب الله غضا طرياً كما نزل من السماء، وعلينا أن نعرض عليه مشاكلنا وعقائدنا وأعمالنا، وبذلك نرضي الله ونرضي رسول الله، ونرضي الصالحين من المؤمنين ...

وادي لالوت

هو وادٍ عميق، كثير الأشجار، غزير المياه عند حملاته، يسقى أرضاً فسيحة خصبة، يتجه في مبدأ أمره إلى الجنوب، ثم ينعطف في نصف دائرة إلى الشمال فيحتضن المدينة العظيمة لالوت، ويكاد يحيط بها إحاطة كاملة.

ولالـوت مدينة لهـا تاريخ مجيـد في الإسـلام، ربضت على قمة منبسـطة من جبل شـامخ، يقتطعها عن بقية القسـم والجبال واد عميق الغور من ثلاث جهات، ويجعل منها شبه جزيرة صخرية، حصينـة المداخل، آمنة من العـدوان المفاجئ، وفي هذا الوادي الـذي يلتف بها كما تلتف يد الولهان بخصر الحبيب تنبع كثيـر من العيون والآبار، وتنتشـر على جميع جهـات البلد، وهي تتفـاوت في غزارة المـاء، ولكنها تتقارب في عذوبتـه، وفي منابع هذه العيون والآبار تزدهر بسـاتين وأجنـة جميلة، يتخذها الناس مصائـف، ويقضـي فيها الشـباب أوقاتـا من البهجـة والأنس والمتعة، ومن هذه المنتزهات الغزيرة المياه :

تونيْن، وإبجَرْ بَنْ، والحِسْيانْ، وسَرْ كَوكَم، وأدْبير، وتَغليس وتعتبر العـين الأخيرة أعـذب العيون مـاء، وكانت تسـقى غابة ظليلة من شـجر الزيتون والنخيل والكرم والكمثـرى وغيره، وتوجد غير هذه عشـرات من العيون التي تنبع من بـين الصخر تتفاوت قوة وضعفا.

في هـذه المدينة التي وصفهـا أبو العباس الشـماخي بأنها مدينة الأشـياخ والعلم، نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام، ومن العالمات الفاضلات، كان من بينهم العلامة أحمد بن بصير، ومحمد بن بصير، وأبو زكرياء يحيى بن جرناز أحد أعضاء الجمعية التـي الفـت الديوان، ويكفي أنهـا أخرجت أبا الربيع سـلمان بن هارون وأبا سهل.

أما من نوابغ النسـاء فقد نشأت بها المؤمنة الصالحة العالمة

" زينـب اللالوتية " التـي كانت تعيش في " لالوت " متمسـكة بأشـد ما يمكن من حجاب المـرأة، ولم يمنعها ذلـك أن تعيش في عصرهـا، وتعـرف مجتمعها، وتتبع الحركات التـي تقع في كامل الجبل، فتشترك بالرأي والكلمة الحسنة، والدعوة إلى الخير. بلغها أن أمـة الواحد زوجة أبـى عامر التصراري أعلنت شـيئا مما تحرص النسـاء على إخفائه، فبعثت إليها تقول في توبيخ عنيف ونهي عن المنكر شديد :

لو أمكن لنا أن نستر قبورنا بين القبور لفعلنا. واستجابت لها أمـة الواحد وتابت مـن عملها ذلك وبعثت إليهـا تعتذر، وهكذا، فقـد كانت المرأة في ذلك العصر حية شـاعرة متصلة بالأحداث التـي تقع في وطنها، ولم تكن قابعة فـي زاوية من البيت يقيد الجهل لسانها، ويملأ الفراغ عليها يومها، وتشحن الخرافات عقلها، وتشغل الصغائر ذهنها كما هو الحال عند المرأة اليوم.

أمـا أم سـحنون : فقـد كانـت مـزاراً للمشـايخ، ومعقـدا لإجتماعاتهـم ومشـاوراتهم، وكثيـراً مـا اجتمعـوا عندها في مهمات الأمور، فجاؤوا من يفرن، وجادو، وشـروس، ليجتمعوا عند أم سحنون في لالوت59.

وعلـى ضفـة الوادي مـن المشـرق مقابل لالوت تقـع مدينة تِيغِيـت التي غيـر اليوم اسـمها، فأطلق : عليهـا أولاد محمود، وقد أصبحت قرية صغيرة جداً، وبجانب هذ المدينة إلى الشـمال مصلى ينسب إلى عاصم السدراتي، كثيرا ما يجتمع فيه الناس لصلاة الاستسقاء.

وإلى الشمال من لالوت بمسافة تقارب عشرين كيلو متراً في السهل الواقع غربي هذا الوادي الذي ينحدر وهو يتلوى كالأفعى تقع مدينة "تاغَرُّويت " أو على الأصح أطلال مدينة " تاغَرُّويت " تلك المدينة التي تنتشر حولها عيون وآبار كثيرة، غزيرة المياه، وتنتشر حولها مزارع خضر، وبساتين غناء، قال فيها أبو العباس في كتابه السير صفحة 296 : " وتاغَرُّويت مدينة قريبة من لالوت، تحتها، وجلا أهلها زناتهُ، واجتمع فيها في أيام أبي ويسجمين سبعون شيخاً، وأكثر أهلها ذهبوا إلى وارجلان ". وإلى الجنوب من هذه المدينة الكبيرة بمسافة قصيرة تقع القرية الجميلة " تُكُوتْ " على رأس ربوة مستديرة مرتفعة تحيط بها من جميع الجهات غابات من النخيل تكون واحة صغيرة خضراء جميلة، وتسقي هذه الواحة من مياه الآبار، كانت من قبل تستخرج بطريقة الدلاء المعروفة، أما اليوم فقد زود أكثر بمحركات، وتعتمد لالوت كثيراً على هذه القرية فيما يتعلق بالخضار والغلل.

وإلى الشرق من " تيغيت " تقع مجموعة من القرى يطلق عليها اليوم "الحوامد " وأشهر هذه القرى في التاريخ الإسلامي " تالات " التي وقعت فيها عدة وقائع حربية، وهاجر أكثر أهلها إلى جربة ومنهم العلامة "التلاتي " العالم المتواضع الذي نجد آثار قلمه في كل كتاب تطالعه من كتب نفوسة، يعلق عليها باستحياء ولكن بإفادة وإمتاع.

وغير بعيد منها تقع " تيركت " وفيها مسجد تهدم جانب منه، ولا يزال الجانب الثاني يروى للتاريخ العلم والخلق والدين ...

وتمتد مزارع لالوت الخضراء، وبساتين التين والزيتون على مسافة أربعين ميلا نحو الغرب حتى تتصل بوازن، يقول العلامة الكبير الباشا الباروني في تعاليقه على " سلم العامة والمبتدئين " ص 33 :

" ويليها – أي لالوت – غرباً على مسافة مرحلة : قرية " وازن " وهي الحد الفاصل بين ولاية طرابلس وإيالة تونس، وأهلها إباضية كلهم، كلالوت، وفيهما رجال محترمون لهم غيرة وحمية على الدين ".

وادي كَرَّاين

هو وادٍ عميق شديد العمق، ينحدر من الجنوب إلى الشمال متخذاً أخدوداً بعيد الغور في الجبل، وهو ضيق في أعلاه متسع في منحدره، ويصب المياه التي يحملها في مواسم الأمطار في الحقول الفسيحة التي تنتج أجود الحبوب، من قمح وشعير، ويتفرع من أعلاه إلى فرعين عند العين الثرارة التي تسقى منها " كباو " الحالية بالوسائل الحديثة لتصريف المياه.

يتجه أحد الفرعين إلى الشرق الشمالي حيث ينتهي في الشلال الجميل الذي تنبع منه عين " رقُّو " العذبة بالماء، الغنية بالغلال.

أما الفرع الثاني : فيتجه إلى الجنوب الغربي، وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادي تقع مدينة " كباو " الجميلة دائرة حول ربوة مرتفعة يلمع فوق قمتها قصر الخزين كأنه عمامة عملاق عظيم، وقد أنبتت هذه المدينة من عظماء الرجال عدداً يتشرف

به التاريخ، ويكفي أن تربتها الزكية، ومناظرها الساحرة، وقممها الضاحكة للشمس تعاونت على تكوين أعظم رجل أنجبته ليبيا في العصر الحاضر: سليمان باشا الباروني : الذي كان من أفذاذ العالم، لم يعرف التاريخ المعاصر من حارب الباطل بإخلاص كإخلاصه، الباطل في جميع صوره واشكاله، سواء ما ورد منه مع الجيوش الاستعمارية الغازية، أو في أبواق الدعوة المشتتة، أو ما دس في الفكر والعلم المنحرف وقد وقف في الميدان كما يقف المارد الجبار يدافع عن الحمى ضربات المدافع، ويرد جيوش العدو المتعاقبة، ويقود الجنود البواسل من أبناء الوطن.

ولقد استطاع أن ينير الطريق بفكره النير لعصبة الأمم، فأعجبت بآرائه،ولكن غلبتها شهوة الإستعمار فلم تنفذها، وجاءت اليوم هيئة الأمم المتحدة فوصلت إلى ما دعا إليه الباروني من قبل، وأصبحت قضية تصفية الاستعمار من أمجد الأعمال التي قامت بها هيئة الأمم، ولو استمع العالم من قبل إلى الباروني لانتهى اليوم من هذه المشاكل، واتجهت جهوده إلى معالجة مشاكل أخرى لا تزال في حاجة إلى علاج.

لقد شغل الباروني فكر العالم مدة من الزمن، كانت الدول تنظر إليه بإعجاب فاغرة الأفواه، وقد مرت فترة من التاريخ لا تخرج منه جريدة في أنحاء العالم ليس فيها خبر عن الباروني أو من الباروني،وليست هذه الشهرة قاصرة على الميدان السياسي أو الميدان العسكري، وإنما تشمل جميع ميادين الإصلاح.

ومن العين الثَّرارة التي تروى " كباو " الحالية، يتجه هذا الوادي

العميق أو الخندق الكبير نحو الشرق حتى يصل إلى المدينة العظيمة " إبَنايَنْ" تلك المدينة التي كانت مركز الحكم لأبي هارون موسى الملوشائي وابنه أبي الربيع، ومأوى لعدد غير قليل من أعلام الفكر والقلم والحكم، ومن حولها تقع عدد من القرى التي تشبه أن تكون ضواحي لهذه المدينة العظيمة.

وتقابل " إبنايـن " من الجنوب " جُليمَتْ " التي أنجبت فيمن أنجبت أبا هارون الجلالي صاحب المدرسة العظيمة التي أنجبت أعلاماً يتشرف بهم التاريخ، وعند ما يصل وادي كراين إلى مدينة بنايـن يتجه فرع منه إلى الجنوب الغربي حتى ينتهي إلى شلال " فَنْدَهْ " وعلى الضفة الغربية لهذا الفرع تتناثر بقايا أطلال مدينة " مَّاسِيْن " يرتفع من بينها مسجد العجوز الصالحة، جدة المشايخ أم الزين اللالوتية.

أما الوادي الأصلي فينعطف مستديراً حول " بناين " إلى الشمال، يشق تلك الجبال الشواهق في اعتداد وقوة، وعلى ضفته الغربية تقع "تصْرَارَ" بلد أبي عامر التصراري.

وينحدر الوادي في أتساع واطمئنان حتى يصل إلى المنفسح الذي أقيمت عليه مدينة " أبي رغوة " محتلة جانبي الوادي وما فيه من أجنة وبساتين وعيون دافقة، وعلى قمة الجبل الشرقية لهذه المدينة يجثم قصر "العَنقَر" في يقظة وانتباه، يقابله على القمة الغربية من الوادي قصر "عَطَرْشُو" كأنها حارسان أمينان.

وهذا الوادي من أعلاه إلى أسفله من أكثر البلاد شجراً وثمراً

وماء، وقد كانت الشمس في يوم من الأيام أذل من أن تجوس خلاله، لما التف فيه من الأشجار.

ويوازي هذا الوادي من الغرب وادٍ آخر لا يقل عنه خصوبة وعمراناً، وهو وادي " الشيخ "، وعلى الضفة الغربية لهذا الوادي تقع " القَلْعَةُ " و " تلات " المدينة التي عاش فيها أسلاف العلامة الكبير أبي سليمان داود بن إبراهيم : هذا الرجل الذي لا يكاد يخلو كتاب من كتب الأصحاب من تعاليقه وحواشيه.

وإلى غربي هذه المدينة تنتثر أطلال " تنومات "، تلك الأطلال التي يختبئ بها مسجد أبي محمد، كأنما يخشى على الفن المعماري الذي نحت به، والنقوش الجميلة الرائعة على جدرانه وسواريه، والآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والحكم البليغة التي حلى بها محرابه وسقفه أن تعبث بها أيدي المتوحشين من الناس الذين لا يحترمون قداسة المساجد، ولا يرعون حرمة التاريخ، ولا يعجبون بجمال الفن.

وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادي تقع قرية " بودير " ومَلَلْ " تقابلهما من الغرب أطلال " كمزين " يربط بينها مسجد أبي سليمان الكمزيني، ويضيق الوادي متصاعداً بين الجبلين في التواءات كثيرة حتى ينتهي في موضع المدينة التاريخية الكبيرة " وريورى " وقد حرف اسمها اليوم قليلا فأصبح يطلق عليها " وَرْوُرِى " وإلى الجنوب من أطلال هذه المدينة تمتد بساتين أشجار الفاكهة المختلفة، وحقول الحبوب، وتنتشر بينها الصهاريج والمنازل المنحوتة في الجبل، وتعتبر هذه الناحية من أجمل مصائف " كباو ".

وإلى الشرق من كباو تقع مدينة فرسطاء العظيمة التي أصبحت اليوم قرية صغيرة، وقد كانت في عهد ازدهارها لا تقل عظمة عن " تملوشايت" و " شروس "، وتتصل بهذه المدينة مجموعة من القرى تكون لها ضواحي جميلة، وفي هذه المدينة نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام، والمصلحين الأفذاذ منهم أبو عبدالله محمد بكر الفيلسوف الاجتماعي، والمصلح الكبير، الذي لا يعرف السأم أو التعب، ولا يكف عن الكفاح في سبيل الله في لحظة من اللحظات، ولعله أول من فكر في وضع الدساتير المستمدة من الإسلام، فقد وضع دستوره المعروف بنظام العزابة، واستمد أحكامه من الإسلام، وأعتقد أنه لا يزال هذا الدستور من أقيم الدساتير التي جعلت للمحافظة على المجتمعات، ومراعاة مصلحة الشعوب، ولم يكن الرجل نظرياً يكتفي بوضع الفكرة، ولكنه حرص أن ينفذ هذا الدستور، وتطبيق أحكامه.

سافر من جبل نفوسة إلى جربة، ومن جربه إلى وادي أريغ، ومن وادي أريغ إلى وادي ميزاب، وكان أهله معتزلة، فلم يمكث بينهم إلا قليلا حتى صاروا إباضية، ومن غيرهم على الحق واتباعه ؛ وطبق هذا النظام في تلك الواحات الخصبة الجميلة، ولا يزال يطبق إلى اليوم ؛ فلقد حفظ هذا الدستور أبناء تلك الواحة الكرام من جميع الشرور التي دخلت البلاد الإسلامية، ولقد تمكن الإستعمار في أكثر بلاد الإسلام أن ينشر الفساد الخلقي مقدمة لإضعاف الروح الدينية.

أما في وادي ميزاب، فقد وقفت فرنسا عاجزة عن التسرب إلى المجتمع، ورجع شياطينها – شياطين الأنس وشياطين الجن

– الذين جندتهم فرنسا مدحورين أمام ذلك الدستور.

وليست القوة قوة الدستور في نفسه، ولكنها قوة الإسلام عندما التجأ إليه بنوه، وعرفوا كيف يطبقون أحكامه، ويتقون به حيل الشياطين، وخدع المفسدين.

وإلى الغرب من " كباو " تقع مدينة " تلات " وقريباً منها أطلال "تنومات " التي لم يبق فيها إلا مسجد عليه كتابات بالخط الكوفي، ونقوش زخرفة إسلامية تشبه النقوش التي توجد في مسجد أبي معروف في شروس، والتي توجد في مسجد أبي هارون في " بناين ".

وقد قال بطل الإسلام وأسد الكفاح سليمان الباروني عندما تحدث عن أبي هارون بن موسى في بعض تعليقاته على " سلم العامة والمبتدئين":

" وبالنظر إلى ما بقي من صدر المسجد، كالمحراب وما يليه، المبنى بالحجارة المنحوتة نحتاً عجيباً، المنقوش فيها بعض حكم بالخط الكوفي، يتضح جلياً بأن لنفوسة في ذلك الوقت علماً نافعاً في الصنعة ".

وإلى شمال " كباو " وبحوالى خمسة عشر ميلا وتحت السفح، تقع "قنطرارة "التي اصبحت اليوم تسمى " تيجي " ولقد كانت قنطرارة عبارة عن جنة من جنان الله في الأرض، غزيرة المياه، تنبع منها العيون الثَّرارة سائلة فوق الأرض، تسقي الحدائق الغناء التي كانت تنبسط على مسافات طويلة، وتنتج أجود الغلال والفواكه والتمور، وقد كانت تستقل بحاكمها عن الجبل

أيام الدولة الرستمية وبعد وقعة " مانو " هجم عليها الوحش البشري ابراهيم بن الأغلب، وقتل أغلب أهلها، وخرب حدائقها، وأحرق أشجارها. لقد ارتكب من الجرائم ما لم يرتكبه قائد حربي فيما أعرف، وهذا إحدى جرائمه التي يسجلها عليه التاريخ، ومنذ ذلك اليوم بدأت تنحصر وتنكمش، حتى بقيت اليوم عبارة عن عيون من الماء، تسقي عددا ضئيلا من النخيل، جعلت فيه الدولة أجهزة للحكم، ومدرسة، وفتح فيها منذ قريب سوق، ويرجع إليها سكان السهل الفسيح الذي ينبسط شمالا في ارتباطهم بالمصالح الحكومية.

وفي هذه المدينة العظيمة قامت مدرسة العلامة سعيد بن أبي يونس الطمزيني، وفيها تخرج عدد من العلماء الأعلام، أمثال أبي مسعد الجناوني، ولما ضرب الأغالبة بنيانها، وأحرقوا أجنتها، وقتلوا أغلب علمائها، انتقلت حركتها العلمية إلى " تمصمص " جنوب " طمزين ".

وادي شَرْوَسْ

هو واد شديد العمق، يتكون أعلاه من عدد من الفروع تلتقي حول مدينة " شروس " في منطقة متسعة، ثم ينحدر إلى الشمال محصوراً بين الجبال، فيكون ما يشبه عنق قارورة كبيرة تنبع في أنحاء منه عيون وآبار.وقد كان دائم الخضرة، كثير الشجر، تزدان نحور الجبال الدائرة به وأعجازها بشجر البطوم الدائم الخضرة، أما قممها فتكللها غابات الزيتون الكثيفة، وفي مجاري الوادي وروافده يرتفع النخيل متمائلا كأنه يصارع الزمن

ليخرج من هذا المحبس العميق. غير أن يد الإنسان العابثة لعبت أسوأ الأدوار في طبيعة هذا الوادي الجميلة، فاقتلعت أكثر تلك الأشجار التي تصبغ الجبال بالخضرة، وقدمتها طعاماً للنيران، لتستخلص منه فحماً يتخذه بعض الناس مكسباً وتجارة، وهي جريمة لعمري أقدم عليها ناس لا يفكرون في زمن غلبت الفوضى في الفترة المظلمة من تاريخ الوطن، هذه الفترة التي مرت بين الحكم الإيطالي الباغي، وحصول البلاد على الإستقلال وقيام دولة من بنيها تحكمها وترعاها تلك الفترة التي أطلق عليها التاريخ فترة الاحتلال البريطاني، فحكمت ليبيا حكماً عسكرياً تجرد عن النظام والقانون ...

كان لهذا الوادي تاريخ حافل في الكفاح، وكم من مرة جاءت الجيوش الباغية تحاول أن تدخل إلى العرين من عنق هذه الزجاجة فضاقت عليها، وبقيت محصورة حتى فشلت وذهب ريحها ورجعت منهزمة ؛ على أن لهذا الوادي قصة أروع من كل ذلك في تاريخ الإسلام والفتح الإسلامي : فعندما كان عمرو بن العاص يقود جيشاً من لفيف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مهمة هذا الجيش إبلاغ دعوة الإسلام الصافية كما أراده الله، وكما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم، لم يضق عنق الزجاجة عن هذا الجيش المؤمن الذي كان يقوده ابن العاص، وفتحت شروس أبوابها للإسلام دون أن تراق قطرة من الدماء، ودخل الفاتح البطل دون أن يكبد الإسلام خسارة في المال أو في الرجال، وتقبل أهل المدينة – مدينة شروس – التي كانت تتبعها في ذلك الحين أكثر من ثلاثمائة قرية، دعوة الإسلام،

وفتحوا قلوبهم للإيمان، وصافحوا بإيمانهم أيدي الصحابة التي لمست يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقى الجيش ما بقي في شروس بين أهل وأخوة، وعندما رجع الفاتحون، كان الإسلام قد استقر نهائياً، وكانت مباديء الإسلام التي تحرر المؤمن من ربقة العبودية لغير الله قد رسخت في أنفسهم، فلم يستطع منذ ذلك اليوم أن يستعبدهم بشر حتى أنقرضت شروس، وكانت هجمات الباغين تختنق في عنق الزجاجة، أو تتحطم على صخور الجبل.

ومدينة شروس هذه أكبر مدن جبل نفوسة في ذلك الحين، بل إنها إحدى العواصم الكبرى المنتشرة في بلاد المغرب، وهي بموقعها في بطن الوادي تحيط بها من جميع الجهات جبال تناطح السحب، وترتفع في كبد السماء، كأنها اسوار من صنع الله وضعتها إرادته U لتحصين هذه المدينة، لا ينفتح منها إلا باب ضيق إلى جهة الشمال، وصفناه فيما سبق بعنق القارورة ...

لقد كانت شروس مركز إشعاع منذ الفتح الإسلامي، وقد امتد منها نور الإيمان والعلم لا في جهات من ليبيا فقط، وإنما امتدت أنوارها منتشرة تتسع وتضيق إلى أقاصي المغرب ...

وقد أخرجت أعلاماً تركوا آثاراً قيمة لا تزال مقبساً للنور إلى اليوم، وحسبها أنها كونت في الزمن المبكر للإسلام في ليبيا مدرستها الكبيرة العامرة بأقسامها الداخلية، وأنها كانت مقصداً لطلاب العلم من جميع الجهات حتى ضاقت مباني المدرسة ومنازل المدينة، عن السكان، فلم يجد الطلبة فيها

محـلات الإقامة، واضطروا إلى الانتقـال إلى مدارس ومدن أخرى كانت أقل شـهرة منها، وإنه لمن أعاجيب الزمن أن تصبح شروس فـي ذلك التاريخ في زمن قصير جـداً مقصداً لتصحيح العلوم، فيـدرس الدارسـون فـي تونس أو فـي الجزائر أو فـي أي جهة من الجهات النائية، ولكنهم لا يطمئنون إلى علمهم إلا بعد أن يردوا إلى شـروس ويعرضوا مـا عرفوا على ابن ماطـوس فيجيزهم إن اجتازوا الامتحان، ويعودوا إلى الدراسة إن لم يوفقوا.

ولقـد لعب الزمـن بهـذه المدينـة العظيمة، فذهـب عنها سـكانها، وانـزاح عنها عمرانهـا، ولم يبق إلا أطـلال دوارس، وإلا مسـجد أبي معـروف يغالـب الزمن، ويصـارع التاريـخ، حتى أن الأجيال الأخيرة أصبحوا يطلقون اسـم أبي معروف على المدينة كلها، فيقولون خربة أبي معروف وأبو معروف هذا هو ويار ابن جواد أحد الأعلام الذين حكموا شـروس وما يتبعهـا من قرى، فأقاموا فيها منار الحق، ورفعوا ألوية العدل، وسـاروا بسيرة الصالحين من أمـة محمد صلى الله عليه وسـلم، كان إماما مـن أئمة العلم، لا يخلـو كتاب من أقواله وآرائه وفتاواه، وقد كان سـريع البديهة ذكياً عبقرياً يحل أعوص المشاكل وأعقد القضايا دون إجهاد فكر، والكتب مشـحونة بأخباره، أما المسـجد الذي يعـرف به فلا يزال قائما بين الأنقاض، منسـق البناء، منحوت السـوارى من الصخر الأصـم ؛ وقد زينت جدرانـه بآيات كريمات وحكـم بالغات، حفرت على أحجـار منحوتة، أو نقشـت بألوان لا تـزال زاهية، وكل ذلك بالخط الكوفي الجميل.

على الضفة الشـرقية لهذا الـوادي، وفوق قمـة عالية تقع

القرية الصغيرة الجميلة التي تسـمى الجزيـرة، لأنها واقعة فوق جبـل منفصل عـن بقية الجبال من ثلاث جهـات انفصالا كاملا. أما من الجهة الرابعة فقد انفصلت عن بقية الجبال بخندق ضيق عميق، شـديد العمـق، والخندق من صنع الطبيعـة لا من صنع الإنسان، ولا يستطيع الإنسان أن يدخل إلى هذه القرية الجميلة إلا فـوق معبر علـى هذا الخندق، وفـي الليل عندما تنـام القرية تنتزع المعابر عن الخندق فتأمن من الدخلاء.

كانت هذه القرية معقلا من معاقل الجبل، وحصناً منيعاً من حصونه التي يتركز فيها الدفاع وتصان فيه الغوالي. وقد وقعت فيهـا عدة أحداث تشـبه أن تكون قصصا لعـدد من المهاجمين الذيـن يحاولون أن يدخلوا إلى شـروس، كما يدخل الفأر من عنق القارورة فلا يخرج إلا أشـلاء، وأحسـب أنني ذكرت بعض الحوادث التاريخيـة المتعلقـة بهـا في بعـض الفصول السـابقة. وكما كانت مركزاً حصيناً للدفاع كانت أيضا ملجأ للأخيار والصالحين، فـكان الناس يقصدونها للتحصن من عدوان المعتدين، أو للخلوة والإنابة إليه تعالى، ومناجاته في خشوع وابتهال.

وإلى شـمال هذه القريـة تقع قرية أخرى تسـمى " أم صفار " لا تـزال إلى اليوم عامرة بالسـكان، وإلى غـرب هاتين القريتين تقع " تَنْزَغْتْ وجَريجَنْ وَدَرْكَلْ وَبغْطُورَهُ وغَفْ سُـوفْ ودَجَّى وزَعُرَارَهْ وتِمنْكَـرْتْ وبَقَالَةْ ومَرْجَـسْ وَوِيغُو " وكثير غيرهـا من القرى التي كانـت تنبض فيها الحياة، وبعض هذه القرى أو الخرائب المنتشـرة على مسـافات متقاربة كانت في يوم ليس ببعيد مدناً عظيمة عامـرة بالعلم مزدهـرة بالعمران، تعيش فيها أمـة ضربت المثل

الأعلى في الاستقامة والنزاهة والمحافظة على الخلق الكريم، والاستمساك بالعروة الوثقى، التي هي دين الله..

وفيها عاش طبقات من العلماء الأعلام الذين تركوا للأمة الإسلامية ثروة من العلم والفهم والسيرة العطرة ...

إنها منطقة كانت من أغنى المناطق بالمجد والعظمة، المجد الحقيقي الذي ترتفع فيه نفسيه المؤمن عن أدران الدنيا، وتحرص على الكفاح في سبيل الله، الكفاح بأوسع معانيه ...

وعندما تنعقد الاجتماعات في دركل أو تونين أو دركل أو في بغطورة أو في ويغو أو في الجزيرة أو تمنكرت أو في شروس أو في غير ذلك من المدن أو القرى، عندما تنعقد تلك الاجتماعات كانت تزدان بأمثال : محمد بن يانس، وأبي خليل، وأبي القاسم البغطوري، وأبي ذر أبان، وأبي معروف ويار، وماطوس بن هارون، وماطوس بن ماطوس، وخيار التمنكرتي، وجندوز التمنكرتي، ووالى العهد المرجسي وأبي بكر الغفسوفي، وعشرات غيرهم من الأبطال في قرون متتابعة، أبطال الكفاح_ كفاح الباطل الوافد في عدوان المعتدين، أو في سلوك الجاهلين، أو في انحراف المبتدعين، ومن أبرز أولئك العمالقة في الميدان العسكري شيبة الدجى الذي حمل العلم في جميع المعارك منذ ولى على الجبل البطل أبو الحسن أيوب بن العباس، إلى أن انتهي الحكم إلى أفلح بن العباس، فلم ينتكس مرة واحدة، ولم يذق هذا البطل طعم الهزيمة ...

وفي الوقعة الأخيرة وقعة مانوا كان القائد العام للجيش

هو البطل أفلح ابن العباس، ولما رأى أن القتل كثر في جيشه، وخاف أن يفكر جنده في التقهقر، أمر " شيبة " حامل العلم أن يركزه في الأرض ليثبت، ولكن حامله الشجاع حاول أن يمتنع، فأكد القائد أمره مرة أخرى، فنظر شيبة إلى أفلح غاضباً وقال له : لقد حملت العلم لأبيك وجدك فلم يأمراني بالحفر له وإثباته، وسأحفر له حفر الله لك، وحفر له، فركزه، فكان الأبطال يستاقطون من حوله وهو ثابت في الأرض، ولما شاهد بعض من يملكون أنفسهم عند الروع حالة الأبطال ورؤسهم تتناثر، وعلم أن بقاء العلم ثابتاً كفيل بالقضاء الجماعي على الناس، ضرب العلم فسقط وتفرقت البقية الباقية ؛ وهكذا حتى في هذه الموقعة التي كتبت فيها الهزيمة على جيش نفوسة لم يسقط العلم من يده، بل إن العلم لم يسقط قط وشيبة في الحياة.

لقد انتقل إلى رحمة الله قبل أن يهان العلم الذي رفعته يداه، فلم ينتكس مرة واحدة ...

أما مدينة ويغو : هذه المدينة التي لا تزال اطلالها مرتفعة، يشاهدها الداخل إلى ما يسمى اليوم بالحرابة، أما هذه المدينة التي لا تزال أطلالها تشهد للتاريخ بما كانت عليه من مجد وحضارة، فقد كانت مدينة علمية وينطبق عليها هذا الوصف أصدق مما ينطبق عليها أي وصف آخر، ويكفي للدلالة على ذلك ما اشتهرت به من أنها إحدى المدن الثلاثة التي لا يحتاج فيها بيت إلى بيت في مشكلة علمية، وقد قصدها الإمام عبدالوهاب الرستمي لما جاء من تاهرت لزيارة جبل نفوسة، وقصد بيت العلامة مهدي النفوسي الويغوي الذي سبق له

أن ذهب إلى تاهرت في الوفد الرباعي وتعرف بالإمام، وتعرف به الإمام، وكان بيت مهدي النفوسي شديد الشبه ببيوت أسلافه أبي ذر الغفاري، وعبدالله ابن مسعود، وأمثالهم، قد أقفر من وسائل الدنيا.

وسمع الشيخ فرج النفوسي ابن خالة مهدي بالضيوف الكرام، فجاء إليه يستأذنه في نقلهم إلى منزله فإنه أصلح لهم، وأرفق بهم، وأستر للشيخ، وانتقل الإمام وصحبه إلى منزل فرج فوجدوا داراً فسيحة متعددة الحجرات، تامة المرافق، متوفرة وسائل الراحة، فاستبدلوا ثيابهم وكان الوقت شتاء، وقد أصابتهم في الطريق مطر، ووضع لكل واحد منهم موقد للاصطلاء : وجهز لهم عشاء يناسب المقام.

وقد تحدث المؤرخون عن هذه الحادثة، وعن يسر الحال الذي يتمتع به الليبيون في ذلك الحين، وعجبوا كيف أمكن لهذا السيد أن يحضر عدداً وفيراً، من المواقد حتى يستطيع أن يضع أمام كل ضيف موقداً، وتعرض العلامة الكبير الشيخ سليمان باشا الباروني لهذه الحادثة ففسرها بأن فرج الويغوي كان رجلا ثرياً يشتغل بالتجارة والزراعة وغيرها، وبذلك توفرت عنده الثياب، لأنه كان يجمعها للبيع والمتاجرة، أما المواقد : فهي أصص معدة للمشاتل، فلما جاء الضيوف استعملها مواقد.

ودخل أحد الناس فوجد أمام كل ضيف موقدا فقال متعجباً " كل شيخ وكانونه " فذهبت مثلا.

أما الضفة الغربية لهذا الوادي فتقع عليها المدينة الكبيرة "

تَنْدَمِيرة " رابضة تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ.

" وتَنْدمَيرة " إحدى المدن التي اشتهرت بأنها مدن علمية، فهي إحدى المدن الثلاثة التي لا يحتاج فيها بيت إلى بيت في مشكلة من مشاكل العلم.

وتَنْدَميرة التي أصبحت اليوم قرية صغيرة، قابعة على القمة الشامخة في في هدوء واستقرار، كانت مركزاً من مراكز الإشعاع العلمي والديني والخلقي، ولقد انبتت تربتها الزكية عمالقة وأعلاما، كان لهم أطيب الأثر في حياة الأمة الإسلامية، ففى مرابعها العامرة نشأ أبو منصور إلياس، هذا البطل الذي لم تنتكس له راية مدة ولايته على ليبيا، ولم يعرف جيشة هزيمة قط منذ تولى قيادته، والذي يشهد له التاريخ بأعظم مجد خلقي اكتسبه قائد حربي.

فما عرف التاريخ في أحداثه الطويلة قائداً حربياً ينتصر في معركة وينهزم عدوه تاركا وراءه ثمانمائة حمل من الذهب تنتثر في الميدان فيعف القائد المنتصر، وجيشه المظفر، ولا يمس منها ديناراً واحداً يحتفظ به للذكرى، حتى يأتى أولئك الذين لا يفرقون بين الحلال والحرام ليلتقطوا ما بقى في الميدان كما تأتى الذئاب لتلغ في دماء الجيف التي عفت عنها الأسود.

إن أصحاب المبادئ من المحاربين يجب أن يقفوا لتحية هذا البطل العظيم كلما ذكر اسمه، وإنه لقليل عليه أن يخلد اسمه في كل عاصمة من العواصم الإسلامية، وليس ذلك للرفع من مقامه، فإن مقامه أسمق من أن يحتاج إلى رفعه، ولكنه ليكون

ذكـرى وعبرة لهـؤلاء الذين يحملون السـيوف ويحاربون من أجل المبادئ فيما يزعمون.

وفي " تندميرة " نشـأ أبو زكرياء الذي حكم الجانب الأكبر من ليبيا، مستقلة على أية دولة أخرى مدة ستين سنة، فلم يكسب منهـا مالا، ولم يدخر ثروة، وإنما كسـب منها عظمة يعز نظيرها عند غيره من الحكام، تطالبه زوجه بشـئ من الزيت للاستصباح فيعتـذر، ويرجوهـا أن تسـتصبح بالحطـب، ويعـرض عليه أحد الأغنيـاء عدداً من الكباش بدلا من الغذاء فيقول له : لوسـئلت يوم القيامة حمل قرونها لأتعبنى، فما بالك بها كلها.

وفي " تندميرة " نشأ أبو حفص عمرو بن عيسى : هذا المؤمن العالـم البطل الـذي كان يطارد الجهل والبدعة مـن ميدان إلى ميدان، كما يطارد المحارب المقدام جيوش الأعداء، فلم يسـتقر به المقام،ولم يسترح من الكفاح حتى لحق بربه ...

وفي تندميرة هذه نشأ عدد غير قليل من العلماء الذين دونت أقوالهم وسيرهم في كتب الشريعة وفي كتب التاريخ والسير.

وإلـى الغرب مـن تدميرة بمسـافة غير طويلة، تقـع مدينة " تملوشـايت " هذه المدينة التي كانت تنازع " شـروس " وتنافسها، والتـي بلغت من العظمـة في يوم من الأيـام أن كانت تخاطب تونـس الخضراء فتصفها بأنها قرية، والقصة في ذلك مشـهورة لا يـزال الناس يتناقلوها مع شـئ من التعليقـات والأخيلة التي لا تخلـو منها قصـة طريفة، فقد قيل : إن مزارعا تونسـياً يملك مخزنـاً كبيراً مـلأه بمحصوله من الحبـوب، وكان إلى جواره معمر

مسـيحي يملك عدداً من الخنازير السـمان، وغفل التونسي فترك مخزنـه مفتوحاً فدخلت إليـه خنزيرة قذرة، وفي وسـط الحبوب ولدت عدداً من الجراء، وسـال منها على تلك الحبوب ما يسيل من الخنزيرة عند الولادة.

وذهـب الفلاح التونسـي إلى المشـهورين من علمـاء تونس يسـتفتيهم فيقلبـون لـه أكفهـم ويرجعـون العلـم إلى الله ورسوله إن هذه الحالة تقع لأول مرة، ولم تدون في الكتب، وهكذا طاف الرجل على أصحاب العلم في تونس الخضراء فلم يجد من يتشـجع ويقول مثلا : إن الأنجاس تزال بالغسل، لأن الناس جميعا يستقذرون الخنازير.

ولو أفتى أحد الناس بهذا لاتهم في دينه من العوام،وسمع به أحد الناس، فنصح المزارع أن يبعث بسؤاله إلى مدينة "تملوشايت " من جبل نفوسة.

وبعـث الرجـل، وبعـد أسـابيع جـاءه الجـواب، فقـد كان في تملوشـايت العالم الأديب الشـاعر أبو نصر حاضـراً، فكتب إليه يقول : من مدينة تملوشـايت إلى قرية تونس، وبعد الديباجة قال : ازرعوا الحبوب النجسة تنبت زرعاً طيباً طاهراً ... وهكذا عملت العبقرية على حفظ مال الرجل، والاستفادة منه ...قد يحق لأبي نصر أو غيره من العلماء أن يفتوا بطهارة هذه الحبوب إذا غسلت وأزيل منها الأذى، ولكنهم يعرفون أن النفوس تستقذر الخنزير وما لمسـه، وأنه لا يمكن أن تؤكل هذه الحبوب ولو كانت طاهرة وحلالا، ولكن زرعها شئ معقول وغير مستقذر، وبهذه المدارك الدقيقة،

وفهم أسرار النفوس وأسرار الشريعة يتفاوت العلماء، فما كل من عرف شيئاً يقوى على حل المشاكل والفتوى للناس..

وإلى الغرب من " تملوشايت " بمسافة ليست طويلة تقع قرية "طمزين" على ضفة الوادي المقابلة لتملوشايت تلك القرية التي كانت من قبل مدينة عظيمة تتصل بتمصمص، وفي هذه المدينة نشأ الرجلان العظيمان أبو يونس وسيم، وسعد ابن أبي يونس، اللذان تعاقبا على حكم " قنطرارة " " تيجى " مدة ليست بالقصيرة. وفي هذه المدينة نشأ أبو محمد خصيب بن إبراهيم، أحد أولئك الأعلام الذين كونوا أجيالا. فقل أن تجد عالماً نشأ في زمانه لم يتلق العلم عن أبي محمد ؛ وفيها نشأ أبو نصر الذي دار جبل نفوسة أربعين دورة ليقوم برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويلقى في المجتمعات دروس الوعظ والإرشاد.

وفي أواخر أيامه فقد بصره، فلم يمنعه ذلك من الكفاح، حتى الكفاح بالسيف، فكان يدخل المعارك يجالد العدو، دون أن تقذى عيناه برؤية ذلك العدو.

إن هذه المنطقة منطقة " تندميرة "، و" تملوشايت "، " وطمزين " منطقة غنية بالأمجاد، غنية بالعلم، غنية بالدين، وقد أنتجت تربتها الخصبة من رجال التاريخ من يحق للأمة الإسلامية أن تضعهم في مصاف العظماء ...

وادي أمْسيين

" وادي أمْسين " أو " وادي جلاَزن " وادٍ عميق بين جبال شاهقة، ينحدر من الجنوب إلى الشمال، ويتكون أعلاه من عدد من الفروع

تنبع فيها كثير من العيون والآبار، ويزدان بكثير من الأشجار، وتجتمع في أمكنة منه غابات كثيفة من النخيل ترتفع متمائلات كأنها تشترك في حفلة رقص، وعلى منطقة هذا الوادي التي تتجه غربا إلى " تاله "، وشرقا إلى حدود " فساطو " تنتشر اليوم مجموعة من القرى كانت قبل زمن ليس بطويل مدنا عامرة بالإيمان والعلم والبطولة.

وإذا كانت " أفاطمان " تلك المدينة التي تقع على الحد الغربي لهذه المنطقة، هي أول مدينة ليبية فكرت في تكوين مدرسة لتعليم دين الله، فإن بقية المدن قد أمدت الحياة العلمية بعلماء أجلاء، وعالمات صالحات، حافظوا على هذه الرسالة المقدسة قرونا طويلة.

وإذا كانت " قُطْرس " أنجبت عمروسا وامثاله، " وأبْدِيلان " أنجبت أبا الحسن وأمثاله " وأفاطمان " أنجبت أبا مُهاصر وأمثاله " ووَزِنزيرف " أنجبت أبا محمد بن الخير وأمثاله، وأنجبت " مَرْسَاوُن " نوحا بن حازم وأمثاله، وأنجبت " تيَميجار " أبا الربيع سليمان بن يخلف وأمثاله، وأنجبت " إينَرْ " أبا سليمان وأمثاله، وأنجبت " أرْجَاجن " زَورَغ وأمثالها، وأنجبت " أمسين " أم يحيى : أول أرملة ليبية فكرت في تخصيص مدرسة للبنات مجهزة بالأقسام الداخلية.

إذا كانت هذه المدن أنجبت هؤلاء وعشرات من أمثالهم، فإنه لا يوجد في هذه الأرض المنبسطة الفسيحة بما فيها من شعاب وأودية، والتي يطلق عليها اليوم اسم الرحيبات مكان إلا وفيه

بقايا مدينة أو قرية كانت عامرة بأهل العلم والفضل والخلق والدين.

ولا يوجد مكان من هذه الأرض الطيبة لا يحمل ذكرى عطرة للكفاح في سبيل الله، وإذا كان العمران قد انحسر اليوم إلى قليل من القرى المتناثرة، وأصبحت المسافة بينها بعيدة، فإنها كانت من قبل متصلة، تكاد تكون مدينة واحدة ...

ويكفي أن تعرف أن الفتاة قد تذهب من " جيطال " أو من " أبديلان" إلى " أرجاجن " لتستمع إلى الدروس الأسبوعية التي تلقيها العجوز الصالحة زورغ على بنات الجبل لتغرس في نفوسهن الدين الصحيح، والخلق القويم.

وإن الفتاة كانت تذهب من " إنْيَر وجيطال ومن مرساون وونزيرف إلى أمسين، فتحضر الدروس في مدرسة أم يحيى للبنات ثم تعود فلا تخاف من وحش أو بشر،وذلك لأنها كانت تقطع هذه المسافات التي يخيل إلينا اليوم أنها طويلة، كما تقطعها اليوم في مدينة كبيرة آهلة بالسكان. إنها تكاد أن تكون شوارع طويلة المدينة واحدة، آهلة بالعمران مزدحمة بالسكان

وادي الزرقاء

هو وادٍ عميق، يتجه من الجنوب إلى الشمال في انحدار متدرج، يكون شلالين عظيمين.

أولهما شلال الزرقاء، ولا يقل ارتفاعه عن ثمانين متراً حسب تقدير العين المجردة أما الثاني فأسفل منه، ويسمى ما صر وهو أكثر ارتفاعا من الأول.

ويستمر الوادي في الانحدار بعد هذا الشلال حتى ينسل من الجبال، ويذهب زاحفاً بين السهول الخضراء يحمل اليها الماء والغرين التي تكون أهم أسباب الخصب في أراضي الزراعة ...

في مصب الشلال الأول تتجمع مياه الأمطار والينابيع، فيتكون من مجموعها البحيرة الجميلة الساحرة التي تسمى الزرقاء، وسميت الزرقاء لأن الزرقة هي اللون الغالب على مائها، ويبلغ عمقها في بعض الجهات ما يزيد عن عشرة أمتار حسبما يقال، وهي مستديرة الشكل كالمرآة، يبلغ قطرها مرمى الحجر للرجل القوي. عذبة الماء، صافية الأديم، دائمة الزرقة يحيط بها من جميع الجهات إطار من الأشجار، يمنحها الخضرة والجمال والظل الظليل، ينبع الماء من حواشيها، وينحدر إليها من الطبقات الصخرية صافيا، بارداً، منعشاً، وتعد الزرقاء أجمل مصيف لأهل المنطقة، ويأتيها السواح من جميع الجهات لمنظرها الخلاب، ومائها العذب، وهوائها المنعش العليل.

أما الشلال الثاني ماصر: فهو أقل جمالا من الزرقاء، وأكثر ارتفاعا، وهو لا يكون بحيرة كما فعل الشلال الأول، فإن مياهه لا تجتمع، وإنما تذهب منحدرة مع الوادي ؛ والينابيع التي تخرج من طبقات الصخور في مصب هذا الشلال تعتبر عيوناً عادية، عذبة الماء، تسقى ما تحتها من أجنة وبساتين.

أما المسافة الواقعة بين الشلالين فهو أرض مزدانة بالأشجار المتشابكة، منها المثمر ومنها غير المثمر، ومنها ما تعهدته يد الإنسان، ومنها ما غرسته عوامل الطبيعة، ويسقى جميع هذه

المنطقة المياه المنحـدرة مع الوادي من بحيرة الزرقاء، مكونة نهراً صغيراً لا يكف عن الجريان، حتى ينحدر مع شلال ماصر، أو تمتصه التربة الخصبة قبل ذلك.

والصـورة فـي جملتها تمثل منظـراً من أبـدع المناظر، يخيل للمنتـزه فيـه أنه في بعـض مناطق لبنان، وإن لكل بلد سـحره وجماله.

ولو ظفر ببعض العناية فوُصَّلت طرق السيارات على البحيرة، وأقيمـت فيـه بعض المحـال التي تقـدم للمتنزه ما يحتـاج إليه، وظفر فيها الزائر بوسـائل الراحة، لأصبح من المناظر السـياحية التـي يقصدها السـواح من كل مكان، واشـتهرت به ليبيا كما اشتهرت لبنان بزحله.

على ضفة هذا الوادي من الغرب تقع قرية " الجماري " الجميلة هذه القرية التي كانت تسـكنها " نانّا مارَنْ " جدة المشـايخ، تلك العالمة الذكية التي استطاعت بما أوتيت من علم وعقل أن تقنع أصلـب رجل فـي جبل نفوسـة بوجهة نظرها، حين اسـتعصى إقناعـه علـى فطاحل العلم والسياسـة ما بـين " تاهرت وجادو "، وقـد تقدمت هذه الحادثـة مفصلة في حياة أبـي عبيدة عبد الحميد.

وإلى الشـمال من هذه القرية بمسافة قصيرة، وعلى الضفة نفسـها تقـع قرية أخرى جميلة هـي قرية " ندبـاس " وفي هذه القريـة يروي التاريخ قصة من أروع قصص المرأة في ميدان العلم والعبقرية، واتباع الحق.

ذهب معبد الجناوني إلى " قنطرارة " يدرس على العالم الكبير سـعد بن أبي يونس ولما بلغ من العلم درجة، وحسب أنه نال منه الكفايـة رجع إلى جنـاون، ومر في طريق رجوعـه على " ندباس " وقبـل أنه يدخل القرية، - وقد انهكـه التعب والإعياء والعطش - وجد أمة تسـقي الماء مـن صهريج فطلب منها أن تسـقيه، وبدلا من أن تسارع الأمة إليإرواء هذا العطشان أجابته في حزم : أنستخدم أموال الناس يا جاهل ؟.

ورجع إلى نفسـه يسـائلها بأي حق يسـتخدم أمـوال الغير، وعرف أنه ما أوتى من العلم إلا قليلا.

ولقنتـه الأمة درسـاً، فرجع من مكانه إلى مدرسـته، وواصل دراسـته حتى أصبح فيما بعد موسـوعة علميـة متنقله وكان مرجعـاً مـن المراجع الهامـة التـي يقصدها الناس للاسـتفادة والعلم.

وإن بلـداً تبلـغ فيه الإماء هـذه الدرجة من العلـم حقيق أن يشغل التاريخ وتستخلص منه العبرة.

وإلى شـمال هـذه القرية على منبسـط فسـيح فوق قمة شـامخة تقع مدينـة "مزغورة " ترتفع فيها مئذنة مسـجد أبي زيد ضاربة في الهواء، تناطح السـحب، وتبعث بتحاياها وتهمس بنجواها، إلـى مئذنه أخرى ترتفع ضاربة في الهواء من مسـجد أبي يحيى في " تَارَدُيَه ".

وفـي هـذه المدينـة الفسـيحة التيكانـت تنافس جـادو في العظمة والمجد نشـأ العلامة أبو زيد، وعاش مشـغولا برسـالته

المقدسة، في جو علمي، بين طلاب أذكياء وزملاء علماء صلحاء، فلما توفي، بقيت مدرسته الفسيحة بما فيها من مخازن وأقسام داخلية – مثابة لأهل العلم والفضل، وقد كان يرد إليها فطاحل العلماء من جميع الجهات، ليؤدوا فيها هذا الواجب المقدس طيلة قرون متتابعة، وتعاقب عليها عدد غير قليل من كبار العلماء والمربين، مثل أبي موسى الطرميسي، وأبي عزيز، وأبي ساكن، ونوح بن حازم، وغيرهم.

وتعد مزغورة في التاريخ الليبي من المدن العلمية التي كانت مركز إشعاع زمناً طويلا، وفي كل واحد من هذه المدن الثلاثة قصة لامرأة، وقد عرفت قصة مارن وقصة أمة ندباس، أما المرأة التي أريد أن أحدثك عنها في مزغورة فهي من نوع آخر: إنها زوجة أبي زيد، هذا العالم المؤمن، لقد ابتلى بزوجة سوء لا يسمع منها إلا الكلمة البذيئة، ولا يرى منها إلا العمل القبيح، إذا دعاها إلى الخير أعرضت عنه، وإذا أسمعها الكلمة الطيبة أسمعته الكلمة النابية واللفظة الجارحة، إذا أيقظها لصلاة الصبح دعت عليه بالسوء واستمرت في النوم، ورغم كل ذلك لم يطلقها، حرص على الاحتفاظ بها خوفاً من أن يبتلى بها مؤمن آخر فلا يصبر على إذاها ...

وإلى الغرب من مزغورة بنحو ميلين تقع " ويفات " عليعنق جبل وعر متجهة إلى الشمال الغربي، وقد كانت مدينة كبيرة عامرة المساجد متراكبة المباني، تكاد تكون مع مزغورة ضاحية، أو امتداد شارع، وإلى الجنوب منها بنحو ثلاثة أميال تقع القرية الصغيرة " رقرق " وهي قرية صغيرة قابعة على ضفة وادي

سحيق العمق ضيق، يكاد يكون عبارة عن خندق عظيم يفصل بينها وبين " توكيت " ...

و " توكيت " مدينة عظيمة تستلقي على هضاب وشعاب تقابل رقرق من جهة الغرب، وقد كان لهذه المدينة في الماضي تاريخ مجيد، وإذا كان للمدن حق الافتخار بمن تعجب من الرجال، فإنه يحق حينئذ لهذه المدينة أن تفخر بأبي زكرياء، هذا العالم المؤمن الذي قيل فيه : أبو زكرياء هو الجبل والجبل هو أبو زكرياء، والذي جعله الإمام عبدالوهاب حجة وبرهاناً، وحسبه أعظم مرجع علمي في زمن كثر فيه العلم والعلماء فقال لأبي عبيدة : وإن كنت ضعيفاً في العلم فعليك بأبي زكرياء التوكيتي. وبين هذه المدن الست المتقابلة وهي : الجمارى، ندباس، مزغورة، ويفات، رقرق، توكيت " أو تمزدة " غابة خضراء من شجر الزيتون، ولا تخلو ربوة من ربا هذه المنطقة أو شعب من شعابها من أثر قرية قد اندثرت، أو مسجد قد بقيت أطلاله أو رسومه، تشهد للتاريخ بما كانت عليه من عمران، أما مسجد أبي زيد : فقد بقي يطاول الزمن بمئذنته الشامخة، والحجرات الدائرة به، تلك الحجرات التي كانت مساكن لطلبة العلوم،ودواميسه الكبيرة التي كانت مخازن تحفظ فيها مؤن طلاب العلم الوافدين من كل مكان، ومما يسر : أن هذا المسجد بقي إلى اليوم كما كان العهد به مسجد الصلاة للمدينة الكبيرة، ومن عبر التاريخ : أن المدرسة الحديثة بنيت ملتصقة به، فهو لا يزال يقوم برسالته الخالدة التي قام بها مؤسسه العظيم منذ القرن الثالث.

أما على الضفة الشرقية لوادي الزرقاء، فتقع مدينة " أرجان

" العظيمة وتنبسط هذه المدينة العظيمة على عدد من الربا والشعاب بين " أُندمَّادُ " وضفة الوادي وقد اندثر جانبها الشرقي فلم يبق منه إلا مسجد أبي زكرياء الأرجاني على رأس ربوة عالية، كانت في القديم قلب المدينة وقد انحاز العدد الباقي من السكان وتكتلوا على قمة الجبل من حاشية الوادي الشرقية فكونوا قرية صغيرة سميت اليوم " مزو " وهذه القرية تقابل قرية "الجمارى " كأنها صورتان باهتتان لمجد باهر غير، وتاريخ مشرق مضى ؛ ولعل أحفاد أولئك الجدود يذكرون ما قدم أسلافهم من خدمة لله والوطن، فيعملون على تجديد ذلك البنيان، وإحياء ذلك التاريخ العطر الذي خلد أبطالا من الرجال والنساء، وفي نانا مارن وأبي زكرياء الأرجانى أسوة حسنة وقدوة صالحة ...

وإلى الشمال من أرجان تقع مدينة " جادو " مدينة نفوسة ومركز الحكم في الجبل عامرة الأسواق، فسيحة الميادين، طويلة الشوارع، عالية المباني، تنبسط على مجموعة من الربى والوهاد في عزة الأمن واستقرار المطمئن، تيحط بها مجموعة من القرى تكون لها ضواحي جميلة، وقد جرى الزمن على جادو بمثل ما جرى به على أرجان، فانتقلت من مكانها الفسيح المنبسط، والتجأت إلى حافة الجبل، فتجمعت في قمة منه، دائرة حول مصلى أبي عبيدة كأنها تعتصم به من أحداث الزمان، وتضاءل عدد السكان، ووسائل العمران، حتى صارت جادو بالنسبة إلى ما كانت عليه من علم وحضارة وازدهار كأنها ملخص صغير لموسوعة علمية ضخمة، لم تستطع إفهام الطلاب المهازيل استيعابها، فعملت الأيدي على اختصارها وتلخيصها.

ولقد أنجبت جادو من الأبطال والعلماء الأعلام ما امتلأت به بطون الكتب، وحسبها أنها كانت دار الندوة ومجتمع المشائخ للتشاور، وعقد المؤتمرات العلمية أو الاجتماعية أو السياسية، وقد وقع عليها الإختيار لأن تحمل هذه الرسالة فحملتها في شرف وإخلاص.

أتفق علماء نفوسة فاختاروا جادو ليبنوا فيها مسجدهم " إمسراتن " ولعلها أول مدينة يجتمع شعب كامل على بناء مسجد فيها ليكون مسجد الشعب كله لا مسجد المدينة وحدها، وقد اشترك الجبل في البناء من أقصاه إلى أقصاه، وادي هذا المسجد إلى الوطن ما لم يؤد أي مسجد آخر، فقد كان العلماء يقصدونه زرافات ووحداناً من كل جهة، ويتذاكرون أمور الناس، ويتشاورون في وجوه الإصلاح التي يجب أن يقوم بها كل واحد منهم في ناحيته، ثم كان ملتقى للثقافات، فقد كان أولئك العلماء الذين يردون إليه يقومون بإلقاء دروس متعددة، وقد يستعرضون في تلك الدروس أحوال المجتمع وما يجب أن يكون عليه، وليس ذلك فقط وإنما كان يؤمه الطلاب الذين انتهوا من دراساتهم أو كادوا في المدارس المنتشره، ويلازمونها أوقاتاً تختلف، وذلك ليستمعوا إلى عدد من العلماء، ويأخذون عنهم، ويناقشوهم، حتى يطمئنوا إلى علمهم وكفاءتهم فقد كانت رسالة هذا المسجد الاصلاح والتعليم بالإضافة إلى العبادة. وانحسر السكان عن موقع مسجد إمستراتن واندثر العمران من حوله، وبقي شامخاً يروى للأجيال ما كان عليه من مجد وحضارة، ومنذ سنوات فكر بعض أهالي جادو في ترميم المسجد وتنادى

النـاس إلى إعادة بنائه، وبذلوا ما لديهم من جهد ومال، ولكنهم لم يسـتطيعوا أن يقيموا ذلك المجد الشامخ واختصروا المسجد الفسـيح منه أقل من النصف، وهدم الباقي، فكان عملهم هذا اختصاراً هزيلا لعمل عظيم.

وقـد أراد المولى سـبحانه وتعالى أن يبقى حي امسـراتن حي العلـم حتى بعد أن هدم بناؤه، وانحسـرت المدينـة عنه، فبنيت المدرسـة إلـى جنبه من الغـرب ومعهد المعلمين إلـى جنبه من الشرق.

وإلـى شـمال جـادو الحديثـة، تتابع ثـلاث قرى جميلـة، هي : القصير، وأشبارِى، ويوجُلِين.

وقصـة هذه القرى الثلاثة هي قصة " جادو ومَزُّو " فقد كانت تكون جانبا من مدينة عظيمة تقابل جادو من الشمال الشرقي، فانحسر عنها العمران، وتوالى عليها العدوان، فالتجأت إلى قمة الجبـل، وتحصن فلولهـا بالوعر، وبقيـت آثارها هنالك تـروى أخبار التاريخ للقرون المتعاقبة.

وتحـت قرية القصير وفوق منتصف الجبل بقليل تنتصب قرية " تَمُوقَط " باسمة ضاحكة كأنها الوليد الذي تهدهده الأم على المصدر الحنون، أما في السفح فتضطع جَنَّاوَن في استرخاء على أقدام هذا العملاق العظيم بينه وبين مجرى وادي الزرقاء.

وإلى الشـمال الشرقي من هذه القرى بنحو أربعة أميال تقع " طَرُمِيَسـة " وهي اليوم تشـبه أن تكون برجاً عظيما أو ناطحة سـحاب. اختار لها مؤسسـوها أنف جبل شامخ يشبه أن يكون

زاويـة مثلث، فوضعوها على رأس الزاوية ثم اقتطعوها عن بقية الجبـل بخنـدق حفرته أيدي النـاس، فكان الدخـول إليها والخروج منهـا لا يمكن إلا على معابـر يضعونها في النهار ويزيحونها في الليل فتنام آمنة مطمئنة، إنها شـديدة الشـبه بالجزيرة، غير أن خنـدق الجزيرة حفرتـه عوامل الطبيعة، أما خندق " طرميسـة " فقد حفرته أيدى البشر لتتحصن به من عدوان البشر.

وتقـع ما بين طرميسـة وجـادو وأرجـان وأدرف منطقة كانت آهلة بالسـكان، متصلة العمـران، متواصلة البنيـان، يقوم في كل مرتفع منها مسـجد أو مصلى، وفي كل شعب من شعابها آثـار قرية أو بقايا ضاحية، يصل بين ذلك غابة خضراء متشـابكة بالزيتون، متمايلة بالنخيل، ينتثر بين ذلك شـجر التين والكرم. أما تلـك المـدن والقرى التي بقيت إلـى اليوم تدب فيهـا الحياة دبيباً ضعيفـاً أو قوياً، فقد كانت في يوم ليس ببعيد في التاريخ مثابة للعلم، ومركزاً للإشـعاع، ومـأوى للأخبار ومحطـاً للرحال، رحال الكرام، يأوون إلى الكرام.

وهذه " جنَّاوَن " التي لا تجد اليوم فيها سبعين رجلا ذكراً، كانت يجتمع بها في مسـجد أبي عبيدة سـبعون عالماً، لا يرد أحدهم السـؤال إلى الثاني إلا من طريـق الأدب، وكان أبو عبيدة على ما عنـده من علم وحكمة يجلس إلى بعضهم كما يجلس التلميذ إلى الأستاذ، وكان هؤلاء العلماء يعيشون في عصرهم بما تعنيه هذه الكلمة، فهم مطلعون على سـير الحـوادث وحالات المجتمع، يدرسـونها ويتشـاورن فيها، ويتخـذون في جميع ذلـك القرارات اللازمة ...

وفي قرية " القصير " التي كانت محل استراحة واستحمام بين " جادو وجناون " كان يجلس أبو الليث في صعوده إلى جادو أو في منحدره إلى جناون، فيصلي لله ما شاء، ثم يعقد مجلس العلم في ذلك المكان الجميل الذي تظلله أشجار البطوم العظيمة، فيحضر إليه الناس ويقبلون عليه إقبال العطاش، ولا يزال الناس إلى اليوم يذكرون تلك المجالس العلمية العامرة بالإيمان ؛ ولكنهم بدلا من أن يشغلوها بالدراسة، وإحياء السيرة، وبث المعرفة، ونشر الفضيلة،أصبحوا يشغلونها بالصدقة والإطعام مرة أو مرتين في السنة، وهكذا عندما أقفرت الرؤوس من العلم جادت الجيوب بالمال، وفي هذا دليل على أن القلوب مفعمة بالإيمان وحب الخير ولكنها في حاجة إلى تعليم وتنوير.

أما " يوجلين " التي أنجبت " أبا يوسف وجدليش بن في " وأضرابه، فقد كانت ملاذ المشائخ ومزار الصالحين، ومقصد العلماء العاملين، حتى قال بعض المؤرخين إن العلامة أبا محمد عبيدة بن أفلح اليُوجَلاَنى إنما تعلم العلم في بيته، لكثرة من يغشاه من العلماء الأعلام، ولطول ما يقيمون عنده، وكان من أكثر العلماء إقامة في يوجلين وأخصهم بأبي محمد العلامة أبو عبدالله بن جلداسن، وعليه أخذ أبو محمد عبيدة وغيره من علماء يوجلين، وقد أسندت إمارة الجبل إلى أبي عبيدالله بن جلداسن، فكان يقسم وقته بين لالوت وجادو، وفي الفترة التي يقيمها في جادو كان يمكن يوجلين، ومنها يحضر إلى جادو ليقوم بمهام الحكم، أما الدروس فكان يلقيها أحياناً في يوجلين وأحياناً في امسراتن مسجد نفوسه.

لقد كان عبيدة بن أفلح غنياً كريماً، ولذلك فقد كان يطعم هؤلاء المشائخ الذين يقيمون في يوجلين، فيطيلون الإقامة من خالص ماله، ولا يقبل مساعدة من أحد، ولم يكن يشابهه في ذلك إلا العالم الثري أبو علي الفساطوي الذي كان ينفق من غير حساب وكان من أخص الناس به وأقربهم إليه أبو الخير الزواغى حتى ارتفعت الكلفة بينهما، وكانا يتحدثان في كل جليل وحقير من أمرهما.

زاره عدد كبير من المشائخ، فأقاموا عنده وأطالوا الإقامة، فاختص بضيافتهم، ولم يسمح لأحد أن يساعده ويشاركه، وكان يذبح كل يوم شاة لعشائهم وشاة لغذائهم، فخجل المشائخ وخافوا أن يكونوا أثقلوا عليه، فكلموا أبا الخير الزواغي راجين منه أن يترك اللحم على الأقل في إحدى الوجبتين، وفي اليوم الثاني من حديثهم مع أبي الخير زاد أبو على، فجعل على كل وجبة شاتين، وعاتب المشائخ أبا الخير فقال لهم : لقد أبلغته رجاءكم ولكنه استشارني واستنصحني فنصحته بالزيادة في الخير...

أما طرميسه التي أنجبت عدداً من فحول العلماء مثل أبي محمد التَّنْكَينصي ومحمد بن بَرْكين وأضرابهم فيكفي أنه نشأ فيها من يستحق أن يلقب بأستاذ الجبل في القرن السابع الهجري، ذلك العلامة أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي.

لقد كانت جادو بما تشتمل عليه من ضواح وقرى هي الحصن

المنيـع طيلة عدد غير قليل من القرون، وقد بقيت مركزاً للحكم، وعاصمة سياسـية للجبل، يتوالى عليها الأمراء، أميراً بعد أمير، لم تخضعهـا القوى التي كانت تتكالب علـى احتلال الجبل من الشـرق والغـرب، وصمدت في بطولـة للضربـات العنيفة التي وجهت إليهـا، ولم تؤثر عليها حتى الجريمـة النكراء التي ارتكبها الميورقـي يوم أحرق غابة الزيتون التـي كانت تظلل مدخل الوادي فـي " جناون " فكان عمله ذلك أفظع من عمل " داهيا " الكاهنة الوثنيـة، لأنها كانت تحسـب ذلك حيلة من حيـل الدفاع، أما هو فقد أتخذ ذلك وسـيلة من وسـائل الهجوم ضارباً بعرض الحائط تعاليم الإسـلام، ووصايا أمراء المؤمنين بعدم حرق الشـجر، حتى أيام الفتوح في البلاد التي لم ترتفع فيها كلمة الإسلام.

وادي الآخرة

وادٍ عميق، كثير الأشـجار، غزير المياه، تنبع من أماكن مختلفة منـه عدد من العيون والآبار، وهو ينحدر من الجنوب إلى الشـمال كمـا تتجه جميـع الأودية التي تشـق جبل نفوسـة في أماكن كثيرة.

وعلى جانبي هذا الوادي من الشـرق والغـرب تنتشر مجموعة مـن القرى والمدن كان لها الأثر القيم فـي التاريخ العلمي لهذه البـلاد، والأراضي المنبسـطة من شـرق هذا الـوادي وغربه تكون غابات جميلة من الزيتون، كثيفة الأشجار، دائمة الخضرة، خصبة التربة، والقسم الواقع منه إلى الغرب كان يسمى أرض بني زمور، وهو ما يطلق عليه اليوم اسـم الرجبان، وفي أرض بني زمور هذه

تقـع عدد مـن المدن والقرى، كانت منشـأ فطاحل مـن العلماء، قدموا للأمة ما هي في حاجة إلى مثله اليوم.

وفـي الجهة الغربية من هذه المنطقة تقع مدينة " أَشْـفِى " على منبسط فسيح فوق الجبل الشامخ، قريباً من حافته.

وإلـى هذه المدينة لجـأ العلامة طاهر بن يوسـف، وقصة هذا الشـيخ في الواقـع إحدى المآسـي التي تنتج عن عهـود البغي والظلـم والعدوان، واسـتحلال ولاة الأمور لما صانه الإسـلام من أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم.

نشأ طاهر بن يوسف في وطنه " ساحل المهدية "، في أسـرة مؤمنـة أنعم الله عليها بالكفاف من الـرزق، وكان يلي أمر البلاد التونسـية حينئذ الطاغية المعـز بن باديـس، وزار المهدية، وجمع النـاس، وصـار يفرض عليهـم الضرائب الباهظـة دون رجوع إلى حكـم الإسـلام، ولا تقدير لما يملك الناس من أمـوال، فكان يدعو الرجـل فيفـرض عليه مبلغاً مـن المال فإذا بادر الرجل إلى شـكر السـلطان سكت عنه وأخذ منه ما فرض عليه، وإذا لم يبادر إلى شـكره ضاعف عليه وهكذا، ودعا أعوان السلطان الشيخ فيمن دعوا من الناس فقرأ الكاتب ما يلي :

على طاهر بن يوسـف سـبعون قفيـزاً من الزيت، فسـكت الشـيخ، وأمر السـلطان الكاتب أن يعيد القراءة، فبقى الشيخ ساكتاً، فغضب المعز وأخذ الكشف من الكاتب وقرأ : على طاهر بن يوسف سبعمائة قفيزا من الزيت، ولكن الشيخ بقي مطرقاً ساكتاً لا ينبس بكلمة، فكاد السلطان ينفجر من الغضب، وقام

يفكر في وسيلة للانتقام تذل هذا الرجل الصموت الوقور.

أما الشيخ فقد حسب جميع ثروته الصغيرة فوجدها لا تفي بهذا المبلغ، وكان قد سئم من هذا الجور الذي لا يقف عند حد، فجمع ما خف لديه من مال وركب البحر هو وزوجه المخلصة، وكان ذلك المال القليل مع ما عندها من الحلى قد جعلتها في صرة واحتفظت بها.

ولما كان المركب ببعض الطريق أرادت أن تغسل يديها فسقطت الصرة في البحر واستراح ابن يوسف من المال، وهكذا هاجرت هذه الاسرة الكريمة من ساحل المهدية إلى طرابلس، ثم إلى جبل نفوسه، وليس لديها من حطام الدنيا إلا ثياب مهلهلة على ظهور أفرادها، وقصد الشيخ جبل نفوسة معقل الأحرار حينئذ، ونزل أول ما نزل في " تاغمة " إحدى ضواحي " يفرن " المدينة البيضاء كما كانت تسمى في التاريخ القديم وتسابق الناس إليه يجمعون له الأموال ويقدمونه له المساعدات، ولكن الشيخ طلب إلى الناس أن يمسكوا أموالهم، ويحتفظوا بها لأنفسهم حتى يزور بقية الجبل، ويرى بقية إخوانه من العلماء الأعلام،ثم يختار لنفسه بلداً يسكنه.

وهكذا بدأ رحلته في الجبل، واجتمع بأقطاب العلم والدين، يأخذ منهم ويأخذون منه وأخيراً، اختار مدينة أشفى، فاتخذها وطناً، وقرر الإقامة بها، وحينما استقر بأشفى ذهب العلامة عيسى بن محرز، وكان في تاردية إلى مسجد أمسراتن الذي يشبه أن يكون دار ندوة يحضرها كل علماء نفوسة فصلى

صلاة الصبح، ثم أخبر الناس باستقرار الشيخ طاهر بن يوسف في اشفي، وجمع الناس له في ذلك المقام ستة وخمسين ديناراً وبعث إليه علماء جناون أربعين قفيزا من الزيت، وبعث إليه إخوانه في شروس أربعين ديناراً ؛ وبهذه الثروة المتواضعة استطاع ذلك العلامة الكبير أن يعيش في اشفي عيشة المؤمنين وهو آمن على حريته ...

إلى الشرق من أشفي تقع مدينة كبيرة أخرى هي " تاردية " وقد جثمت على منبسط من الأرض فوق جبل شامخ ترنو منه إلى "قصرالحاج" القرية الصغيرة عند السفح، كما يرنو العملاق الطويل إلى قزم يلعب بين قدميه. وفي هذه المدينة يقوم مسجد أبي يحيى، بمئذنته الضاربة في الهواء، كالمنارة الحدباء، مائلة قليلا إلى الغرب كأنها تنحني لتهمس في أذن صومعة أبي زيد تشكو إليها أحداث الزمان وتغير التاريخ، وإعراض الناس عن دين الله وعمارة المساجد والقيام بأمر الله ...

وإلى المشرق من هذه المدينة لمسافة ليست طويلة تقع مدينة " سنتوت " متكئة على صدر هضبة ترنو إلى الشمال في غير مبالاة.

وفي هذه المدينة المسترخية اليوم، نشأ أبو الشعثاء السنتوتي ؛ قمة شامخة من قمم العلم، وعلما من أعلام الفضل، دأب على التدريس. وهذا خلق طبع عليه جميع رجال العلم في ذلك الحين، على أن الذي أمتاز به أبو الشعثاء إنما هو عنايته بتعليم الفتاة،فقد كان يخصص لهن دروسا فكن يتلقين عنه العلم

ويستمعن منه إلى النصيحة، ولم يكن مجلسه يقتصر على الفتيات من " سنتوت " بلده، أو القرى والمدن القريبة منه فقط، وإنما كان يحضر إليه الفتيات الذكيات الراغبات في العلم من الأمكنة البعيدة التي يقطعن فيها المسافات الطويلة حبا في الثقافة، ورغبة في توسيع المدارك، حتى لقد تحضر إليه الفتيات من " تِدِينتُ ". وإذا كان هذا إقبال المرأة عليه، واهتمامه بأمرها، فإن إقبال الرجال عليه أعظم، ورسالته فيهم أوسع، وعمله بينهم أكثر إثماراً، وأوسع إنتاجاً، وأعود بالفائدة...

وحياة أبي الشعثاء حافلة بالعلم والتعليم، والقيام لله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والفهم الصحيح لدين الله.

كانت أم الخطاب امرأة صالحة، رغب فيها أخو زوجها السابق، فجاء يخطبها فرفضته، فألح، فأقسمت بعتق رقيقها أن لا تتزوجه، وأكثر عليها الناس فيه القول واللوم، وألحوا في النصيحة حتى لانت واستجابت، وراجعت نفسها وفكرت في قسمها، فقال لها أولئك الذين يحتالون على الدين، ويلتمسون الفتوى من الطرق الملتوية، ولا يهمهم أن يحللوا ما حرم الله، قالو لها : لو وهبت مماليكك لأحد الناس ثم تزوجت فردهم عليك أو رد بعضهم لجاز لك ذلك، ولكنها لم تطمئن، فذهبت إلى أبي الشعثاء تسأله عن موضوعها وتخبره عن فتوى الناس، فقال لها في استنكار وتأنيب : أتخادعين من خلق الخداع – يا أم الخطاب ؟ ...

فرجعت مسرعة إلى دارها، فوجدت الإماء ينسجن فقالت لهن : إنكن معتقات، فقمن ولم تزد واحدة منهن خيطا فرحاً

بالحرية، وكن ثلاث عشر جارية وعلى مسافة قريبة من سنتوت إلى الشرق تقع مدينة " إشارن " بلد أبي اسحاق العالم الزاهد الذي كان لا يفتأ يقول لأهل بلده : اضمنوا لى أربعا أضمن لكم أربعاً.

الأذان، والصلاة، وتعليم الخط، وحفظ القرآن الكريم، يسلم مسافركم، وَينْمُوُ رزقكم، وتطفأ نار الحرب عنكم، ويرتفع القحط ؛ فإذا جاء إلى المسجد ولم يجد أحداً غضب لله وشدد الإنكار، واسمعهم قوارع التأنيب وربما قال لهم يا أهل : إشارن صرتم " إشارن " 60.

كانت أرض بني زمور المنبسطة المعتدة ما بين وادي الآخر والأراضي التابعة لجادو متصلة العمران، كثيرة القرى، يعمرها العلم والعمل الصالح، وكانت ترتفع في وسط هذه الأراضي العامرة مدينة " ميرى " على عدد من الهضاب المشرفة على المنطقة، وعلى قمة عالية من إحدى هذه الهضاب لا يزال يجثم مسجد الإمام العظيم عبد الوهاب بن عبدالرحمن كما يجثم الصقر على صخرة ضاربة في الهواء، ينظر إلى ماتحته من حشرات وخفافيش في احتقار وازدراء.

مكث عبد الوهاب بن رستم سبع سنوات كاملة في هذه المدينة، فكانت بذلك عاصمة للإمامة فيما بين سرت والمغرب الأقصى وكان يرجع إليها الولاة من سرت وودان وزويلة وفزان،كما يرجعون إليها من تونس والجزائر.

واتسعت المدينة العظيمة للإمام العظيم فكانت حلقة

اتصال بين الشرق والغرب والجنوب، واليوم وقد غدا الزمان على المدينة وأصبحت خرائب وأطلالا لم يبق منها إلا ذلك المسجد، يروي للتاريخ عبر الماضين ولا يزال إلى اليوم حرما آمنا يضع فيه أبناء الرجبان اليوم زرعهم وزيتونهم فلا تمسه يد، ولا يعتدى عليه معتد، كأنما لا يزال أمير المؤمنين عبدالوهاب يقيم فيه حدود الله، فيقطع أيدي السارقين، وينزل حكم الله على الخائنين...

وإلى الجنوب من ميرى بنحو ميلين تنبسط " أدَرَفْ " التي تقع على مشارف غابة الزيتون.. فإلى شمالها الشجرة المباركة، وإلى جنوبها تمتد سهول مزارع القمح والشعير ...

وقد أنجبت هذه المدينة أعلاماً قل أن يجود بهم الزمان، وفيها نشأ عدد من العظام الذين اختيروا لحكم جبل نفوسة، ومن بينهم أبو داود الذي أستقل بحكمها فقيل عنه : إن نفوسة لم تر مثل أيام أبي داود.

أقيمت حدود الله، وصد عدوان المعتدين، فانتشر الأمن وعم الرخاء، واستقرت الحياة بالناس، فكان عصره عصر خير وبركة.

على الضفة الشرقية لوادي الآخرة تمتد اراضي " تَاغَرْمِينْ " الفسيحة الخصبة، وقد كانت تلك الأراضي الفسيحة عامرة بالمدن والقرى، آهلة بالسكان ما بين حافة الجبل ومَطكوداسَنْ، على حوافي الجبل يظلك شجر الزيتون الضخم، وعندما تبتعد عنها إلى الجنوب تمتد أمامك مغارس شجر التين، فإذا تجاوزتها انبسطت أمامك مزارع القمح والشعير تلك المزارع التي لا يصل إلى مداها البصر، ولا تحدها رؤية العين، تبدأ ضيقة في رؤوس

الهضاب، ثم تنفسح تدريجياً، فإذا نزلت الأمطار انسكب عليها الماء من المرتفعات فأرواها وانعشها.

و " تاغرمين " هذه التي أصبحت اليوم تسمى " الزَّنتَان " كانت مقر علم وفضل ودين، ومنبت رجولة وبطولة وأخلاق.

وفيها نشأ عدد غير قليل من فطاحل العلماء، مثل أبي يعقوب، الذي حكم جبل نفوسة، فكان من خيرة الحكام اتباعا للحق، ورجوعا إلى دين الله في كل صغير وكبير، وتواضعا للمؤمنين، قال فيه أبو العباس : " أتاه رجل بنميمة فقال : فلان لا يقول هذا : بل هو منك. فقطع عن نفسه النمائم 61".

اما أبو محمد عبيدة بن زارور فقد كان في المرتبة السامقة من العلم والورع والاستقامة.

جلس يوماً إلى المشائخ يتحدث عن نفسه ويراجع حسابه مع ربه فقال: عملت ثلاثا يشبهن الفضول : أعطيت حمارا فارها أركب عليه من مكان إليمكان فأعجبني سيره فقلت : ما أحسن سير هذا الحمار فقال الرفاق إنه لليتيم الفلاني.

وحين عرف أبو محمد أن الحمار ليتيم نزل وأتم الرحلة على رجليه، ولو لا الفضول لبقى راكبا دون أن يجد في نفسه شيئاً.

ومر على بستان تين فدعاه صاحبه إلى الأكل ودخل العالم الورع فأعجب بنضارة التين وطيبه فقال : ما أحسن هذا التين، فقال له صاحب البستان عندما سالت الأمطار انكسرت إليه تلك الساقية، وأشار إلى ساقية تجلب الماء إلى بستان ثان، فقال أبو محمد : ولمن الساقية ؟ فقال صاحب البستان : إنها لليتيم

الفلانـي، وكان هذا كافيـا في حرمان أبي محمـد من هذا التين الطيب، ولو لا الفضول والسـؤال لأكل أبـو محمد دون أن يعلق به إثم.

ومـرت به أمة نشـيطة خفيفـة جميلة فسـلمت عليه فرد السـلام وقال لها: ما أحسـنك إن عرفت توحيـدك، فتعلقت به وطلبـت إليه أن يعلمهـا توحيدها، واضطر أبـو محمد أن يلقي درساً طويلا مسـهبا في التوحيد لهذه الأمة المسلمة ليعلمها أمور دينها، ولو لا الفضول لما أضطر إلى هذا العناء.

قال أبو محمد : وعملت ثلاثا يشُبهن الكذب :

كان يسـير مع رفاق له فأبصر ذئباً فقال للرفاق : ألا ترون ذلك الذئـب، وهو لا يعـرف إن كان ذكراً أو أنثى. وخرجت سـيدة البيت لشـأن من الشـئون تاركة طفلها الصغير، فأخذ الطفل يبكي فكان أبو محمد يقول للطفل هذه أمك مقبلة ولم تكن كذلك، فكان أبو محمد يرى من نفسه أنه كذب على الطفل البريء..

ونفرت بغلته فأخذ مخلاة فارغة يدفعها أمام البغلة النافرة حتى رجعت إليه، أليس هذا خداعا للحيوان الغافل ...

لقـد ارتكب أبـو محمد هذه الجرائـم : وكان لا يفتـأ يذكرها ويسـتغفر الله منها، ويحاسـب نفسـه عليها، فمـا رأى القراء الكرام في رجل هذه أعاظم ذنوبه وأكبر أخطائه ...

ولعـل الكاتـب الـذي ينقـل عبـرة التاريـخ وجمـال الذكـر لا يسـتطيع أن يمـر على " تاغرمـين " دون أن يذكـر قصة المرأتين الصالحتـين : أم جلديـن وأم زعرور أما أم زعرور ففتاة درسـت على

أم يحيـى، وتزوجت أبا محمد التغرمينـي، ورحلت معه إلى بلده، فكانـت لـه نعم الزوجـة، والقارئ الكـريم يقع علـى أخبارها في أثناء هذا الكتاب ؛ إما أم جلدين : فامرأة صالحة نشـأت " بيفرن " وتزوجت هنـاك إلا أنها لم ترزق أولاداً، وفي آخر أيامها كانت تدعو الله أن لا يرفعهـا إليه حتى ترى زيتون " تاغرين " وتلتقى بأم زعرور ثم تتوفـي ويصلى عليها أبـو محمد، وفي إحدى السـنوات نزل المطـر الباكر على أراضـي تاغرمين، وتأخر عن يفـرن، فرأى أهالي تلـك المنطقة أن ينتجعوا الكلأ في منـازل الغيث، وارتحل زوج أم جلديـن فيمن ارتحل إلى أراضي تاغرمـين. وذهبت فتاتان من الحي إلى الزنتان لشـأن من الشـؤون، فسـاقتهما الصدفة إلى بيت أم زعـرور، فكـن يلاحظنها وتهمس إحداهن للأخـرى قائلة : هذه العجوز تشـبه جدتنا، ويقصـدن "بجدتنـا " أم جلدين، فهذا هو اللقب الذي يطلقه عليها الناس، وسـمعت أم زعرور ما تتهامس به الفتاتان، فسألتهما عن جدتهما : فأخبرتاها، فذهبت معهما لزيارتهـا والتقت المـرأة الصالحة بالمرأة الصالحـة، وتواصتا بما فيه الخيـر، ثم قالـت أم زعرور لأم جلدين : ادعي لنـا فقالت أم جلدين : لقد سـألت ربي كثيراً وإنني اسـتحي أن أزيـد، فدعت أم زعرور ورجعـت إلـى منزلها فأخبرت أبـا محمد، فذهب هـو الآخر ليزور العجوز الصالحـة، ولكنه وجدها قد توفيـت فصلى عليها، ورجع ينقـل الخبر إلـى صديقتها الوفيـة، وهكذا تحققـت مطالب أم جلديـن : فرأت زيتون تاغرمين، واجتمعت بـأم زعرور، وصلى عليها أبو محمد ....

وفـي تاغرمين مصلـى أم الخطـاب الذي كان محـل اجتماع

لأعاظم الأمة، وحسبك أن يكون مقصداً لأبي مرداس وأضرابه.

أما مصلى أم جلدين، فلا يزال معروفا إلى اليوم في يفرن.

لقد كانت تاغرمين في المرتبة التي لا تداني من كثرة العمران، ووفرة السكان، وخصب الأرض، وانتشار العلم والصلاح، وتزايد الأبطال، أبطال العلم وأبطال الكفاح.

وادي الرومية

وادٍ يتجه من الجنوب إلى الشمال كما يتجه جميع أودية الجبل، وينحدر انحداراً تدريجيا خفيفاً حتى يصل إلى قطاع من الجبل، فيكون شلالا عظيما ربما كان أعلى شلال في جبل نفوسة، والمنطقة التي فوق الشلال تكون روضة مستطيلة قليلة النظائر، تشتبك فيها الأشجار المختلفة من مثمرة وغير مثمرة وتسيل خلالها المياه الدائمة، وتنبع في كل جهة من جهاتها عيون وآبار تجعل منها منطقة خصبة دائمة الخضرة، وأعظم هذه العيون وأعذبها ماء هي عيون الرومية.

وقد سحب قسم من مائها في أنابيب إلى مدينة يفرن على مسافة ستة أميال تقريبا، ومنها تروى هذه المدينة العظيمة.

أما المنطقة التي تحت الشلال فتكون غابة جميلة من الزيتون والنخيل تختبيء في أحضان الجبل العظيم، وبين تلك الأشجار الباسقة في حضن الجبل الدافيء وحول مصب الشلال العالي تنام قرية أولاد عطية في هدوء واطمئنان.

إلى غرب هذا الوادي الخصيب الجميل تمتد أراضي خصبة تكون

مزاراع للقمح والشعير تارة، وتكون أجنة وبساتين شجر التين تارة أخرى، فإذا اقتربت من حافة الجبل كونت غابة فسيحة خضراء من شجر الزيتون، حتى تصل إلى جبل " شماخ " الذي يرتفع في شموخ بين الربى والمرتفعات.

وتاريخ هذا الجبل كان بمر كتاريخ بقية الجبال والمرتفعات في حياة الطبيعة لو لم ينشأ عليه آل شماخ الأماجد، ورغم أن هؤلاء الرجال العظام انتقلوا في سكناهم من شماخ إلى يفرن إلى أنهم بتاريخهم الحافل، وأعمالهم الجيدة، رفعوا من شماخ ويفرن على السواء، ويندر جداً أن تجد بلدا أمد الإسلام برجال تسلسلوا في أزمنة طويلة من التاريخ وهم يحملون أعباء الرسالة المقدسة في حرص وأمانة، كما فعل آل شماخ، وآل الباروني، وآل أبي منصور إلياس.

ولو كان للبقاع أن تفتخر، لحق لشماخ وتندميرة وتملوشايت أن ترتفع بين الربى والهوهاد.

وليس معنى هذا أن بقية البقاع لم تقدم من الرجال مثل هؤلاء : إني لو قلت مثل هذا لوقفت كثير من البقاع محتجة، ولصرخت في وجهي أدرف، وجادو، وتوكيت، وأرجان، وجناون، وونزيرف، وويغو، وكباو، وفرسطاء، وتمصمص، ولالوت، وعشرات غيرها، ترد على هذا القول وتبطل هذا الزعم، ولكن الفرق بين تلك القرى الثلاثة التي أنجبت عمالقة عظاماً وغيرها من القرى، أنها لم تحتفظ بهم لنفسها، وإنما آثرت بهم غيرها من المدن والقرى.

إن جد الأسرة البارونية أبا هارون موسى ما أسند إليه حكم

الجبل حتى هجر تملوشايت التي أنجبته، وجعل مركز حكمه في " أيباناين " ثم أنتقل أبناؤه من أيباناين بعده إلى كل مكان، وعمروا كل بلد إلا تملوشايت مدينتهم الأولى.

وكما فعل آل الباروني فعل أبناء أبي منصور، فما أسند الحكم إلى أبي منصور حتى انتقل إلى جادو، وقد عمر أبناؤه من بعد كل القرى والمدن إلا تندميرة مدينتهم التي أنشأت أبا منصور.

وعلى هذا المنوال سار آل شماخ، فقد انتقلوا إلى يفرن، واستفاد من علمهم وخلقهم ودينهم كل مكان في الجبل، ولكن جبل شماخ لم يعد مأوى لهم.

إن هذه المدن الثلاثة تملوشايت وتندميرة وشماخ أنجبت أبر الأولاد، ولكنها آثرت بهم غيرها، وتسلسلوا في بلدانهم الجديدة، ولكن أعمالهم كانت للأمة جمعاء، إن المدن الأخرى التي انجبت عظماء مثل هؤلاء أو أكثر أو أقل احتفظت بأبنائها، وإن كانت أعمالهم للجميع.

وكأن أسرة الشماخي لم تتكون في هذا الجيل إلا لتدخله في حساب التاريخ دون آلاف من الربا والوهاد في مختلف البلاد.

وعلى الجهة الشرقية لهذا الوادي تقع مدن كثيرة متناثرة بين هضاب قليلة الارتفاع، ووهاد قليلة الانخفاض، ذات تربة خصبة، تزدان بحدائق غناء من أشجار الفواكه المختلفة.

تلك المدن المتناثرة تتقارب في بعض الجهات حتى تصبح مدينة واحدة، وتتباعد في جهات أخرى حتى تصبح ضواحي لتلك المدينة، ويطلق عليها اليوم اسم يفرن، وهو اسم القبيلة

البربرية التي سكنتها في بعض أدوار التاريخ، أما الأسم التاريخي لهذه المدينة قبل الإسلام، فهو البيضاء، واستعمل الإسم الأخير حتى في بعض الصور الإسلامية، وذكرها به بعض الكتاب، ومن المفارقات : أن هذا الإسم كان يطلق على طرابلس أيضاً، فيسميها بعض الرحالين بالمدينة البيضاء، قال التيجاني : " ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء ".

وتاريخ يفرن الإسلامي حافل بالمجد والعظمة، وقد بقيت مدة غير قليلة مركز إشعاع، ومنذ القرن الثامن تقريبا حملت رسالة العلم والتعليم في الجنوب الليبي، وكان لها فضل عظيم في نشر الثقافة الإسلامية ورعايتها، والدعوة إليها إلى زمن الاحتلال الإيطالي وحتى في عصور الانحطاط أيام حكم الدولة العثمانية على البلاد بقيت يفرن في مقدمة البلاد التي حافظت على التراث الإسلامي الصافى محافظة لا تساهل فيها ولا تفريط.

وقد كانت زاوية البخابخة مقصداً لطلاب العلم، ومأوى لعشاق الثقافة يقصدها نجباء الطلاب من كل مكان تقوم برسالة التعليم المقدسة باستمرار، مرة بقوة ونشاط ومرة بضعف وفتور، حتى جاءها في أواخر العصر التركي الإمام العلامة عبدالله ابن يحيى الباروني، فجدد بناءها، وجدد أسلوب التدريس فيها،فاقتبس طريقة التعليم والاصلاح الاجتماعي،ومكافحة الأمراض التي بدت تسري في كيان الأمة من دين الله، ومن

سيرة السلف الصالحين الذين سبقوه في هذا الميدان، فكان لمجهوده العظيم أعظم الأثر لا يقل عما تركه أبو موسى عيسى الطرميسي وأبو ساكن عامر بن على الشماخي.

أما المدرسة التي أسسها أبو ساكن عامر الشماخي فقد بقيت هي الأخرى تؤدي رسالتها، تارة في التعليم المنهجي والإصلاح الاجتماعي، وتارة تقتصر على الإصلاح الاجتماعي، وكان في أغلب الأحيان يعمر هذه المدرسة بعض أبناء هذه الأسرة الكريمة التي لم ينقطع منها الفضل والشرف والعلم..

وقد نشأ في يفرن عدد غير قليل من العلماء أمثال عبدالسلام بن صالح، وعمروس اليفرني، وأبي يحيى زكرياء بن عبدالرحمن ؛ وكان من العمالقة الذين أنجبتهم يفرن في أواخر العصر التركي، العلامة قاسم بن سعيد الشماخي، نزيل مصر، وقد كون هذا العلامة إلى جنبه الأديب الصحفي المصري مصطفى بن إسماعيل، وكان الرجلان يكونان ثنائيا مندفعا في كفاح الأباطيل والخرافات والبدع بقوة وعزم، وحينما ثار الجامدون في وجه الإمام محمد عبده، كان هذا الثنائي من أعظم الأنصار الذين وقفوا في وجه الجمود يردون كيد الخصوم، ويحاربون منطق التخلف الذي يمليه في أغلب الأحيان حسد، مبعثه القصور والعجز، فكانت لهما مقالات رنانة متآزرة في الصحف، وكتب متآخية في نصرة الحق، أما المحاضرات والمناقشات التي كانا يقومان بها في النوادي والمجتمعات، فقد سمعنا عنها، ولم يصلنا منها شيء، أما والده سعيد الشماخي الذي كان يحتل مكاناً مرموقا في الأوساط العلمية فيكفي للدلالة على

مكانته أن الحكومة التونسية قد اختارته وكيلا لها على شؤونها في مصر، على ما لتونس من الرجال في ذلك الحين

تآزر جهود
الفرد والجماعة والدولة

في الفصول السابقة عرضت إلى الحديث عن عدد من العلماء الليبين الذين نشأوا في أجزاء من ليبيا، ودرسوا في أجزاء من ليبيا، وقاموا بالتدريس والإصلاح في أجزاء من ليبيا، ولو كنت من دعاة القوميات لحسبت ذلك شرفا لهذا الوطن الكريم، أو لهذا الشعب النبيل، ولكني لا أؤمن إلا بالأمة الإسلامية الكبرى، التي تذوب فيها الشعوب والقوميات والأجناس.

ولا أحب إلا الوطن الإسلامي الكبير دون حدود أو تقسيم، ذلك الوطن الذي يجمع أولئك الناس الذين يؤمنون بالله ربا وبمحمد رسولا وبالقرآن كتاباً، وبالإسلام ديناً] ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه [وأن أي عمل مجيد يقوم به فرد أو طائفة في أنحاء هذه المملكة الإسلامية الواسعة إن هو إلا من أمجاد الأمة جمعاء ومن مآثر الإسلام على البشرية.

وأن أي انتكاسة تصيب جزءاً من أطراف هذه المملكة الواسعة، إن هو إلا انحراف عن سبيل الله أو بسبب الانحراف عن سبيل الله.

تحدثت عن هؤلاء العلماء كمثل للكفاح الإسلامي في

واجهة دقيقة وميدان شديد الخطر، لأنه يتصل بالفكر والعقل، ولست أقصد بالأسماء التي ذكرتها سواء كانت أسماء رجال، أو أسماء أمكنة أن أحصر الكفاح في أولئك الأشخاص أو في تلك الأمكنة، فإن هذا لا يجرى في خاطري، وإنما ذكرت هؤلاء كمثل لعشرات مثلهم أو خير منهم، نشأوا وعاشوا في هذا الجانب من الوطن، وقاموا بمثل هذا الكفاح الطويل المقدس في سبيل الله.

وكمثل لآلاف من العلماء المخلصين الذين ينبثون في كل ركن، وكل زاوية وكل جهة من الوطن الإسلامي الكبير، يكافحون هذا الكفاح الدائب المخلص، إيمانا برسالة الله، واحتسابا لله، وحفاظاً على التراث المجيد الذي خلفه المهتدون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الأمة الإسلامية، ورجال الأمة الإسلامية، لم يعتمدوا قط على الدول في بناء المشاريع العظيمة منذ انحرفت تلك الدول عن النظام الإسلامي في الحكم، سواء كان هذا الانحراف بعيداً وقريباً، والأعمال الخالدة، والمشاريع الضخمة، والكفاح الدائب المستمر، إنما كان يقوم كل ذلك على كواهل أفراد أو جماعات من الأمة، لا يسندهم الحكم، ولا يقدم لهم يد المساعدة إلا حينما يجد في ذلك دعاية له، أو تأييداً لحكمه، أو جلباً لأنصار جدد يتأيد بهم سلطانه، ويقوى نفوذه.

وحينما كان العاملون في الأمم الأخرى تغدق عليهم الأموال، وتفتح لهم الأبواب، وتحشر أمامهم الإمكانيات، كان رجال الإسلام يقومون وسط الدول المنحرفة بأعمالهم إما منفردين

أو مؤيدين بأهل الفضل والإحسان من أبناء الأمة،ومع ذلك فقد استطاع أولئك الأبطال أن يقدموا للبشرية ما لم يقدمه غيرهم، وذلك لأنهم بنور الله يبصرون، وبروحه يعملون، إنهم يعملون في ضوء الإسلام الذي أنار آفاق الحياة للإنسان.

ارجع إلى معاهد العلم في الوطن الإسلامي الفسيح، وإلى الدراسات التي قام بها جبابرة العقل وإلى الرحلات الطويلة التي اكتشف فيها المسلمون كثيرا من مجاهيل الأرض ارجع إلى ذلك وإلى أكثر من ذلك فإنك سوف تجده قد قام على كواهل أفراد أو جماعات، وكثيراً ما تجيء الدول فتحتضن مشروعا من تلك المشاريع بعد أن يثبت ويستقر، وأكثر المعاهد العلمية إنما كانت على هذا النمط بناها أصحاب الخير والفضل أفراداً أو جماعات، وأوقفوا عليها أوقافا تدر عليها ما يكفيها من النفقات، وبعد أن يقوم هذا العمل ويؤدي رسالته كأحسن ما تؤدي الرسالات تأتي الدول فتدخل المعهد تحت نفوذها ثم تسحب أوقافه إلى ميزانيتها وتنفق عليه من بعد في حرص وتقتير، وتزعم للعالم وللناس أنها تشجع العلم وترعى معاهده.

إن الذي أريد أن أقوله في هذا الصدد أن حركة الإصلاح بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى لم تتوقف يوماً واحداً في الأمة الإسلامية، وعندما كانت الدول تنحرف عن صراط الله، أو تعجز عن القيام بمهامها، أو تشتغل بأمور أخرى بعيدة عن واجباتها، أو تستخذي لسلطان دولة أخرى فإن دبيب الحياة في الأمة يستمر، ورسالة الإصلاح لا تتوقف، والمؤمنون المخلصون يدأبون على ماعاهدوا الله عليه من جهاد في سبيله وذود عن

رسالته وقيام بأمره.

ولست أعني بهذا الحديث أن الدول المتعاقبة في تاريخ الإسلام لم تقدم للبشرية مثل ما قدمت الدول الأخرى أو أكثر أو أقل فإن كثيرا من المشاريع الضخمة قامت بها دول يدين القائمون عليها بالإسلام ولكنني أعني أن المجهود الشعبي للمسلمين كان أكثر آثاراً وأعظم إنتاجاً وأدوم حركة.

وهذا الكفاح الفردي أو الكفاح الشعبي لا يعفي الدولة من المسؤلية ولا يجعلها في معزل عن الإصلاح في شتى ميادينه ولا يباعد بينها وبين الأمة، لأن الدولة في الإسلام هي التعبير العملي عن فكرة الأمة، بشرط أن تكون هذه الفكرة متمشية على هدى من الدين القويم.

وعندما تكن الدولة ملتزمة لنظم الاسلام، عاملة بشرائعه، مستوحية منه الهداية،فإن الغايات من الكفاح الفردي والشعبي والدولي أو الحكومي تكون واحدة. ويكون الوصول إليها سهلا ميسوراً، لأن الإسلام كما لم يثعُفِ الدولة من الإصلاح، كذلك لم يعف الفرد ولم يعف الجماعة.

فإذا تآزرت هذه القوى – قوة الفرد وقوة الجماعة، وقوة الدولة – التي هي العناصر المكونة للأمة، إذا تآزرت هذه القوى كان ذلك اندفاعا محموداً في تحقيق الرسالة التي تسعى إليها الإنسانية في نور الشرائع السماوية.

ولن تفترق هذه الجهود في دولة إسلامية عاملة بكتاب الله محافظة على دينه. فإذا وجدت أن أعمالا عظيمة ومشاريع

ضخمة تقوم على مجهود فردي أو مجهود شعبي دون أن تعني بذلك الدولة فإنها حينئذ تكون منحرفة عن سبيل الله.

أما الفرد أو الجماعة من الأمة فإنها لا تستطيع الإنحراف في دولة إسلامية وهذا يعني أنه إذا وجد انحراف سواء كان هذا الانحراف عن دين الله من فرد أو جماعة، فإن الدولة أيضا لم تقم بأمر الله ولم تسر على الإسلام.

وإذا كان لا يحل للفرد العادي المسلم أن يسكت عن المنكر يقوى على تغييره فكيف يقع المنكر من فرد أو جماعة ترعاهم دولة مسلمة، وتتولى تنفيذ أحكام الله فيهم.

إن الدولة لا تكون إسلامية إلا إذا كانت جميع الطاقات والقوى فيها – سواء كانت هذه الطاقات فردية أو جماعية – موجهة إلى خير الإنسانية، سائرة في النهج القويم الذي دعا إليه كتاب الله، وأوضحته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار فيه المهتدون من سلف هذه الأمة ...

المرأة الإباضية في ليبيا

كان موقف المرأة الإباضية في ليبيا هو موقف المرأة المسلمة المؤمنة من الأسرة والمجتمع والأمة، لا يقعد بها ظلام الجهل عن مكانها، ولا يطغى بها الغرور العلمي عن مكانها، فهي عماد الأسرة في التربية والتوجيه،وهي عماد الأمة في النصيحة لله ولرسوله،وهي ظهيرة الرجل في كفاحه من أجل دينه ومن أجل وطنه، تثبت في الصف الثاني دائما لتكون ردءاً للرجل ومرجعاً له، إن استشارها نصحته، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح، غمرته بالمحبة والحنان، ووطأت له كنف المنزل فوجد الراحة لنفسه، ووجد الراحة لبدنه، ووجد الراحة لقلبه، تقوم على شؤون البيت قيام العارفة، وتتصرف في مال الزوج تصرف المخلصة الأمينة.

وتتلقى عن الأب والأم أسس السلوك الذي يحمدها عليه عشراؤها طول الحياة، هذه الصورة هي الإطار العام لحياة المرأة الإباضية على العموم، أما الصورة التفصيلية لآحادهن فهي أروع وأجمل.

فَهِمَت قواعد المذهب الإباضي الذي لا يجيز التقليد في الدين، وفهمت قواعد المذهب الإباضي الذي يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفهمت قواعد المذهب الإباضي في

وجوب الولاية والبراءة الشخصيتين.

وحملتها القاعدة الأولى على أن تدرس، وتحضر مجالس العلم، وتشترك في النقاش الحاد لتأخذ دينها عن فهم واقتناع لا عن محاكاة وتقليد.

وحملتها القاعدة الثانية أن تعرف كل شئ في مجتمعها، وتطلع عما يجري حولها، وتزن أعمال الناس وأخلاقهم حتى تستطيع أن تصرخ في قوة لتستنكر المنكر، وتدعو في حرارة إلى المعروف.

وحملتها القاعدة الثالثة أن تنظر إلى سلوك الأفراد فتعلق محبتها ورضاها لمن يستحقون الولاء، وتعلن غضبها وبراءتها من أولئك الذين يتمردون عن الحق، ويجابهون الله بالمعصية، أو يخالفون عن سيرة المسلمين، فنيطلق صوتها من وراء الحجاب المسلم المصون يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر،ويدعون إلى الإيمان بالله، ويندد بالعصاة والمنحرفين.

1 - فكم كان رائعاً حين انطلق صوت المرأة المسلمة 63من قسم النساء في مسجد غاص بالمصلين يأمر الإمام بالتأخر لأنه ليس أهلا لأن يصلى بالمسلمين، ويستجيب ذلك الإمام لصوت الحق الذي انطلق من فم امرأة في مسجد غاص بالرجال، فيتأخر ويتقدم من هو أولى.

وتقضي ظروف الحياة أن تلتقي هذه المرأة المؤمنة في مضيق من الطريق بهذا الرجل الذي آذته في الله، فتوجس في نفسها خيفة، وتخشى أن تلقى منه بعض ما تكره، ويحس الرجل بما

يعتمل في نفسها فيقول لها : امضى راشدة، لولاك لهلكنا، يسر الله لك سبل الجنة 64.

لقد خفت صوت المراة بعد أمهات المؤمنين ومن تأدب بأدبهن في المساجد ومجامع الصلاح، وإن ارتفع في مجالس الغناء والشراب، وفي المراقص والملاعب، وفي الشوارع والمكاتب، ولكن هذا المجتمع الذي يعمل بقاعدة الولاية والبراءة ويرتفع فيه صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تزال فيه المرأة تحتفظ بآداب الإسلام، لا تغرها المظاهر الخادعة من الحياة الزائفة، ولا تزال المرأة تعمر المسجد، وتشترك في مجالس العلم من وراء حجاب وتصدع بالحق ...

2 - رجع أبو يوسف حجاج بن وفتين إلى بيته بعد نقاش طويل حاد في المؤامرة التي يدبرها خلف بن السمح لقلب نظام الحكم، وتكوين دولة جديدة تحت حكمه، وكان أبو يوسف يميل إلى مؤازرة هذا الزعيم الجديد، فلما أراد الدخول إلى داره ووضع رجله داخل العتبة، صاحت به زوجة المرأة المؤمنة التي تتمسك بالحق وتتبعه قائلة : إليك يا بائع دينه65وصدمت كلمة الحق سمع الرجل فوقف في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر يوازن بين الموقفين، ويقارن بين المصيرين، وأطال الوقوف حتى تبين له الحق، وأدرك فداحة الجرم الذي كان مقدما عليه، وعرف صدق النصيحة في هذه الزوجة الوفية التي تحبه وتحب له الخير ولنفسها ولأولادها ؛ وللأمة من ورائهم، فأعلن إذعانه للحق، وتوبته إلى الله، ورجوعه إلى صفوف المسلمين، وحينئذ انفتح له القلب الكبير الذي أحبه وغمره بالعطف والحنان وهداه بالنصيحة السديدة المخلصة.

إن المـرأة في ذلك العصر لم تكـن أقل من الرجل علما وفقها في الدين، ومعرفة بأسرار الشريعة واستمساكا بالحق.

3 - ارتحـل أبو معبد الجناونـي إلى قنطـرارة " تيجى " والتحق بمدرسة سـعيد بن أبي يونس الطمزيني، ودرس حتى ظن أنه بلغ الغايـة عن العالـم الكبير، وقفل راجعا إلـى مدينته جناون فمر فـي طريقه بقرية " نَدْبَاس " هـذه القرية التي تقع على الضفة الغربية لوادي الزرقاء الجميل، والتي تسـتقبل قبلة الشمس عند البزوغ كل صباح.

وتبعث بتحاياها الرقيقة إلى زميلتها " مزو " المقابلة لها على الضفة الشـرقية من الوادي فوجد أمة تسقى الماء من صهريج خـارج القريـة، وكان قـد بلغ منه الجهـد والعطـش، فاتجه إليها وطلـب منها أن تسـقيه، فنظرت إليه في اسـتنكار، وقالت له : أتستخدم أموال الناس ياجاهل 66؟

وصدمه الجـواب العنيـف ! أبعد كفاحه الطويـل في طلب العلـم تعيره أمـة بالجهل ؟ ورجع إلى نفسـه، وتاب إلى رشـده، وأذعـن للحـق، وعرف أن دراسـته نظريـة بحته، وأنـه في حاجة إلـى المزيد،ورجـع من مكانه ذلك إلى المعهد الـذي كان يدرس به، فأقـام فيه وأطال الإقامة حتى اصبح علما بين العلماء، ومرجعاً للنبغاء.

إنه فضل المرأة التي تعرف حدود الدين ومنتهي الحقوق.

وشبيه بهذا الموقف موقف بهلولة مع أبان :

كانت بهلولة 67 امرأة عالمة صالحة وكان أبو ذر أبان بن وسـيم

مثلهـا علما وصلاحـا، فكان يزورها يقتبس مـن علمها وخلقها، وتقتبس من علمه وخلقه، وأعجب بها فخطبها إلى وليها.

وجاءهـا يوما فرحا مستبشـرا فاسـتأذن فأذنـت له،وفتحت الباب وبادرهـا يخبرها أن خطبها من وليها،وأن الولي وافق وعقد العقد، فاغلقت في وجهـه الباب ثم قالت له : كنت تدخل إلينا بأمانتـك ففتحنا لـك، والآن صرت مدعيا، فـإن أتيت بينة رضينا بـك زوجا، وإلا فانصرف، ثم قالت له إنك أمين ولكنك احتجت إلى الأمناء، ولو كنت أبانا.

واضطر العالم الشيخ الورع، أن يثبت دعواه بشهادة الشهود، وإقـرار الولي حتى رضيت به بهلولـة زوجا، وكانت له نعم الزوجة وكان لها نعم الزوج، فما عرف أن زوجين تشابها خلقا وعلما ودينا كما تشابه هذان الزوجان.

وقـد دلـت الحادثة السـابقة أنهـا أملك منه لزمام نفسـها واكبح لعاطفتها، وأرسـخ قدما في الوقوف عند حدود الشـرع وتطبيقه، فلما اسـتخفه الفرح بموافقة الولي على خطبته لها لم يجعل لشـئ آخر حسـابا، أما هي فقد طبقـت عليه أحكام الشـريعة السـمحة تطبيق العالمة المؤمنة، التـي تراعي الدقة والحق في الأحكام، فلم تعتمد على معرفتها الشـخصية لأبان، ولم تسـتجب منه، وإنما رجعت في تلـك القضية إلى حكم الله، ذلك لأنها كانت عالمة بحكم الله.

وإذا اجتمع العلم والإيمان في قلب إنسـان – ذكراً كان أم أنثى – أكسـباه مناعـة خلقية تسـمو به عن العواطـف والحظوظ

الصغيرة للنفس البشرية، والتفكير المحدود المنغلق المحصور في ذات مشبعة بالأنانية.

كان أبو عامر التصراري رجل علم وعبادة، وكانت زوجه أمة الواحد 68 امرأة مؤمنة صالحة، يجمعها إلى زوجها حب وعطف وحنان، ويقارب بينهما اشتراك في الميول والعواطف والأعمال، وجاءت عجوز من " تندميرة " إلى " تصرار " تشكو إلى أبي عامر بنتها الشابة، قالت العجوز: لقد توفي زوجي منذ أمد طويل، وترك لي بنتا صغيرة سميناها " توزين " وحبست نفسي على هذه البنت فعلمتها وربيتها أحسن تربية، ولما بلغت سن الزواج تهافت عليها الشباب الأكفاء يطلبون يدها، ولكنها رفضتهم جميعا دون سبب، وكلما راجعتها في ذلك أجابتني بأنها لا تريد الزواج، لأنها تخشى حقوق الزوج، وتخاف مسؤلية الأسرة، وهذا الزمن يتقدم بي، وإنى لأخشى أن أتركها في يوم من الأيام دون رعاية أحد.

استمع الشيخ إلى شكاية العجوز وعطف على قضيتها ووعدها بأن يزورها مع جمع من المشائخ لعلهم يستطيعون اقناع البنت بما ترجوه أمها.

واجتمع الشيخ بعدد من العلماء وذهبوا إلى " تندميرة "، وقصدوا بيت العجوز ودعوا إليهم الصبية التي تمنعت عن الزواج، ولم يزالوا بها حتى لانت واقتنعت، ولكنها اشترطت عليهم شرطا واحداً معقولا، وهو أن تختار زوجها بنفسها.

فوافق المشائخ بالإجماع على هذا الشرط، لأنه حقها

الطبيعي الذي منحتها إياه الشريعة السمحة، وكانوا ينتظرون أن تعلن إليهم اسم أحد أولئك الشباب الذين تقدموا لخطبتها، ولكن الفتاة أعلنت إليهم أنها اختارت أبا عامر التصراري. هذا الشيخ العالم الزاهد المسن.

إنها لا تفكر بالشباب ولا بالقوة ولا بالمال، واستجاب المشائخ لها، كما استجاب لهم من قبل، ورجع أبو عامر إلى زوجه الحبيبة أمة الواحد بأسوأ خبر يمكن أن ينقله زوج إلى زوجه، ورجاها أن تستعد للقاء الزوجة الثانية، فتلقت الخبر بصبر المؤمنة وأعدت في منزل الشيخ ما يعد للعروس في أول زفاف، واستقبلتها استقبال أخت محبة، ولما أوى الشيخ إلى الزوجة الثانية ذكرت أمة الواحد أن العروسين ينقصهما شيء سهت عنه عندما أعدت لهما الغرفة، فناولتهما إياه من تحت الباب ورجعت إلى فراشها لتبيت فيه منفردة.

إن لهذه المرأة قلبا كما لسائر النساء، ولها عاطفة قوية جياشة، وهي تحب زوجها، ولكن لها مع ذلك دين يعصمها من النزق ويوقفها دون أن تتعدى حدود شرع الله وحقوق الناس وعاشت الزوجتان تحت كنف أبي عامر يرعاها بلطفه، ويغمرها بحبه، ويساوي بينهما بعدله، وذات يوم خرجت أمة الواحد إلى بعض البساتين تجمع حطبا، عندما همت بأخذ الحطب وسوس لها الشيطان فخطر لها أن الشيخ قد تغذى مع الزوجة الشابة وتركا لها لقمة باردة في ناحية من البيت، وعرفت أن هذا الخاطر من الشيطان فاستعاذت بالله ورمت حزمتها إلى الأرض،ثم زادت فيها حطبا لترغم أنف الشيطان.

ورجعت إلى البيت، ودخلت الدار، فوجدت الزوجين قد تغديا وتركا لها نصيبها في إناء. فرجع إليها الخاطر من جديد وأحست بالغيرة تدب في نفسها واصفر لونها.

وكان أبو عامر ينظر إليها في شوق وحنان، فلما رأى وجهها متغيرا عرف حديث النفس وقام إليها فامسك بطرف كمها وقال كمن يخاطب الشيطان : اخرج يا عدو الله من جسد طاهر.

وكان لهذه الكلمات الأثر المطلوب على نفس المرأة المؤمنة.

فقد خرج الشيطان من جسدها الطاهر، وزالت الغيرة من نفسها، ورجعت إليها الثقة في زوجها، وعاشت الأسرة المتكونة من إمرأتين ورجل في منزل يغمره الحب والتفاهم والتعاون.

ومع هذا الخلق السامي الذي تتحلى به أمة الواحد لم تسلم من نقد الزميلات، فقد أعلنت شيئا مما تحرص النساء على أخفائه، فبعثت إليها زينب اللالوتية تقول لها في استنكار وتأنيب : " لو أمكن لنا أن نستر قبورنا بين القبور لفعلنا " فتابت أمة الواحد. واستمعت إلى النصيحة التي وردت إليها من أخت مؤمنة تحب لها الخير وتحرص على سلامة دينها وسعادتها في آخرتها.

لقد كانت المرأة المسلمة في تلك العصور تقف إلى جانب الحق لا تتعداه وما دام الشارع الحكيم يوجب عليها أمراً من الأمور فهي تسمع له وتطيع غير ناظرة إلى إساءات الناس أو احسانهم.

أبو عثمان المزاتي : عالم من كبار العلماء، ومؤمن من أصدق المؤمنين، كان يسكن قرية " دَجَّى " هذه القرية التي تجثم على

صدر جبل شامخ إلى الشمال من " تنزغت " و" غفسوف " وكان لأبي عثمان بنتان أحسن تربيتهما وتعليمهما : الكبرى منهما تسمى " منزو "68، وكانت قبيلته تسكن إلى الجنوب عند بئرها المعروف اليوم " بئر مزاته" فجاءه بعض أقربائه يخطب إليه منزو ولم يظن أبو عثمان بهذه الفتاة اللطيفة الأديبة الصالحة عن أجلاف البادية فاستجاب له، وما تم العقد حتى نهض الرجل ومر بجانب البيت الذي فيه العروس، وقد كثر فيه لفظ النساء فصاح بصوته الغليظ الجافي قائلا : إن كانت منزو بينكن فلا آذن لها أن تبقى.

وقامت الفتاة المؤمنة الصالحة اللطيفة قبل أن تستكمل زينتها وسارت وراء هذا الزوج الجافي الغليظ الطبع،وكان راكباً جملا...

وسارت الفتاة، وطال بها المسير، حتى حفيت قدماها، وسالت منها الدماء، ولكنها مع ذلك لم تشك ولم تتبرم، فإذا نزل زوجها في مكان للمبيت أو للمقيل، بادرته فوسدت له رداءها، ووطأت له مجلسه، ثم عالجت له طعاماً، فإذا قامت له بجميع شؤونه وقدمت له ما يحتاجه رجعت إلى نفسها وأدت حقوق ربها،ولم يزل هذا دأبه ودأبها حتى وصلا إلى وطنهما، فبنى لها بيتاً بعيدة على الناس، فكانت تشبه أن تكون سجينة لا تزور ولا تزار ...

إنها لا ترى أحداً من خلق الله غير هذه الطلعة الكريهة الحافية، وكانت مع ذلك تبالغ في الإحسان ويبالغ في الإساءة، وذكرها المشائخ بعد طول غياب، ذكرها العلامة أبو زكرياء يحي

بن يونس السدراتي، فدعا أباها وجماعة من المشائخ إلى زيارتها.

وسار المشائخ يقطعون ألوية الرمال ليزوروا أختا في الله وشاءت المصادفة أن يصلوا إليها وهي تصلح بيتها من الخارج منفضلة69. فكانت أول كلمة وجهها إليها أبو زكرياء هذه التحية : "إني لأختار أن أجد جنازتك خارجة، ولا أراك خارج بيتك متفضلة ". واستتابها فسارعت إلى التوبة والاستغفار ولم تعتذر بأنها منفردة، وأنه لا يوجد في المنطقة غريب، وأنها تمر عليها الشهور ذوات العدد لا تسمع حساً ولا ترى شخصاً ؛ لم تقل شيئاً عن ذلك ولم تشك ولم تتبرم. لقد كتب عليها أن تتزوج هذا الرجل وله عليها حقوق، فعليها أن تصبر وأن يؤدي ما عليها من حق غير ناظرة إلى صاحبها أيستحق هذا التكرم أم لا يستحقه، ومكث القوم ثلاثاً ثم قفلوا راجعين.

ولقد أثرت حالة منزو هذه على أبي عثمان، فكان يحس لها من الألم شيئا كثيراً، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لها، واستفادت بنته الصغيرة" تكفا " من نفسية أبيها بعد قصة منزو، فكانت تلقى منه من العطف والتدليل فوق ما كانت تجده قبل ذلك، حتى كانت تفضي إليه بأسرارها العاطفية وتحادثه عن زينتها، وما تخشاه من فسادها وهي تزف إلى زوجها الحبيب في ليلة العرس..

فكان يرفق بها ويساعدها ويستمع إليها في حنو بالغ ...!

إن الذي يقرأ الحوادث السابقة قد يحسب أن مجهود المرأة الإباضية في ليبيا قد يقف بها عنصر الصبر والاحتمال،

والخضوع المطلق للزوج، أو الأب، أو الولي، وهو حسبان ليس له ظل من الصواب، فإن المرأة في تلك العصور، رغم أنها لم تزل حجابها ـ ولم تمتهن نفسها، ولم تستعرض مفاتنها على العيون، ولم تنحدر بكرامتها إلى سوق المساومة، إنها رغم ذلك كانت تشترك اشتراكا فعلياً في أحداث الحياة، وكثيراً ما وجهت سياسة الأمة من جهة إلى جهة، ولم ينقص كفاحها عن كفاح الرجال في جميع الميادين.

7 – كانت أم يحيى 70العالمة الفاضلة، والمربية القديرة، تسكن مدينة " أمْسِينْ " بين جِيطال " و " تمِجَارَ ". وكانت ترى أن الفتاة لا تتم دراستها في المدارس التي يدرس بها الطلبة الذكور، ورأت أنها لو فتحت مدرسة خاصة بالفتاة لأتاحت للمرأة المسلمة فرصة الدراسة إلى آخر المراحل التعليمية، وما أقتنعت بهذه الفكرة حتى شرعت في تنفيذها، وتأسست المدرسة الخاصة بالبنات، وفتح بها شبه ما يسمى اليوم، بالأقسام الداخلية، فكانت الفتيات يقبلن عليها للتعليم، وكانت البعيدات منهن يقمن في المدرسة، وهي تقدم لهن الأكل وتشرف على تربيتهن، ولم تكتف بهذا، فقد كانت توجه الفتيات حسب استعدادهن وميولهن، فكانت تربى الجميع تربية إسلامية صالحة، وتوجههن في الحياة، فمنهن من تفتح لها أبواب العمل، ومنهن من تسهل لها طريق تكوين أسرة، ومنهن من تحرص أن تستمر في دراستها حتى تصل إلى درجة النبوغ ...

ولست أدري والله ما الذي صنعه علم النفس الحديث فوق ما صنعت هذه المرأة، ولا المآثر التي بلغتها المرأة اليوم فوق ما فعلته

امـرأة الأمـس دون أن تعلن عنها الجرائد وتتحـدث عنها الإذاعات وتصفق لها الأكف...إنها كانت تعمل ساكنة صامتة وإن كانت نتائـج عملها تظهـر باهرة في أمثال شـاكرة الزعرارية وأم زعرور وأضرابهما ...

ومن المؤسـف أن تقف فتاة اليوم تلعن ماضيها المشرق لأنها تنظر إليه بعين مغمضة، وتناقشه برأي مستورد، وتاريخ مزور، ولو أنها ألقت عن نفسـها هذا التبجح، وتناولت عن قليل من الغرور المصطنع والتمست طريقها القويم بين الحقائق التي خلفتها لها جدتها، لوجدت في ذلك من الشرف والنبل والكفاح ما لم تبلغه هي في هذا العصر مع الأسباب الميسرة والوسائل المتاحة ...

8 - كانـت أم ماطوس 71 فتاة ذكية جرئية يسـكن أهلها في المدينة المنبسـطة فوق جبل " جَارْإِصْرَا " شرق كباو، ودرست على علماء بلدهـا حتى لم تجد عندهم جديـداً، فرغبت في الالتحاق بمدرسـة أبي محمـد خصيب بـن ابراهيـم التمصمصي جنوب طمزيـن، وليس بالمدرسـة قسـم داخلي للبنات وبين المدرسـتين مسـافة طويلة لا تقـل عن أربعة أميـال، وكان طبيعيـاً أن تجد معارضة من أهلها لا سيما من أخيها الغيور، فهل يسمح لفتاة في عمـر الزهـور أن تقطع هذه المسـافة الطويلة بـين البلدين منفـردة في كل يـوم، ولكنها صممت على بلـوغ الغاية، وتحدث الأهل والأقارب ...

فكانـت تأخـذ أدوات الدراسـة وتتسـلح بمزراقها ثـم تذهب إلى المدرسـة فتحضر مجلس أبي محمد، وتسـتمع إلى دروسه،

وتشـترك في المناقشـات، وترجع إلى قريتها فتجد الناس قد آووا إلى مضاجعهم واسـتغرقوا فـي النوم العميق، فتشـتغل في دروس الغد، وتحضر ما لديها من واجبات حتى إذا اطمأنت إلى أنها قامت بواجبها أحسن قيام أوت إلى فراشها، فأراحت ذلك الجسم المكـدود، ولم تزل كذلك حتى بلغت الغاية، وأصبحت من الأعلام التي لا يسـتغنى عن حضورها فـي مجلس من المجالس العلمية. وكتب لها أن تزوجت في " مَرْسَاوِنْ " قرب تِمِيجارْ فكان المشائخ لا يعقدون مجلساً إلا بحضورها، فتحضر المناقشات، وتستمع إلى آراء الأعلام وتنتقدها، وقد تسـببت لها هذه الشهرة المناقشات، وتستمع إلى آراء الأعلام وتنتقدها، وقد تسببت لها هذه الشهرة في مشاق وأتعاب ... وكثيرا ما تكبدت أهوال السفر وهي حامل لتحضـر المجامع التـي تعقد في جنـاون أو تندوزيـغ أو غيرها من الأماكن التي يختارها المشائخ للإجتماع.

أذكـر أنني التقيت في الجامعة الامريكية في بيروت بسـيدة كانـت فخـورة جـداً، لأنها كانت حسـبما تقول أول فتـاة عربية دخلت الجامعة، وكانت تعيد ذلك في كل مجمع ولكل مناسـبة، فكنت أقول في نفسـي : هذه فتاة ربيت في بيت مسيحي، وهي تعيش منذ خلقت سـافرة، ولا تجد أي عنت في مجالسـة الرجال في البيت والمقهى، ولا بد أن يكون أتيح لها – قبل دخول الجامعة – أن تراقص عدداً من الشبان على الطريقة الغربية على الأقل في أعياد الميلاد، ميلادها أو المسـيح، هذا إذا كانت أسـرتها محافظة في بيروت وفي القرن العشـرين، ومع ذلك تحسـب أنها كسـبت مجداً، لأنها دخلت مدرسة للذكور منفردة.

ضع إلى هذه الصورة – الصورة الأخرى – صورة هذه الفتاة المسلمة التي تعيش بين أفراد أسرة مسلمة، محتفظة بالحجاب، لا تسمح لنفسها أو يسمح لها الناس أن تخالط الرجال غير المحارم، هذه الفتاة المسلمة بخلقها ودينها وحجابها استطاعت أن تقهر كل الظروف، فتحقق لنفسها أمنيتها الغالية وهي الالتحاق بجامعة أبي محمد خصيب، وتدرس في هذه الجامعة رغم معارضة الأهل وتشددهم في هذه المعارضة، ورغم المسافة الطويلة التي لاتقل بحال عن أربعة أميال. ما مقدار بطولة فتاة العصر إلى أم ماطوس التي كانت تعيش في القرن الثالث الهجري ؟ أضف إلى ذلك أين تلك الفتاة كافحت ذلك الكفاح العظيم من أجل العلم فقط، ولم يكن في حسابها شيء مما يزدحم به رأس الفتاة في هذا العصر، إنها لم تكن تدرس لتحصل على شهادة، ولا على زوج، ولا على عمل، ولا لتتيح لنفسها المتعة واللهو.

اذكري تاريخك يا فتاة اليوم، وانظري إلى أعمال جدتك في الماضي،فستجدين فيه من العظمة ما يحق لك أن تفخري به دون أن يمس شرفك أو تمتهن كرامتك، وليس صحيحاً ما يلقيه في روعك دعاة الانحلال والتفسخ بأن ماضيك كان مظلماً ومظلوماً فمنذ تشرفت خديجة بنت خويلد بالإسلام تغير حال المرأة، ووضعها في التاريخ و المجتمع، وقد أكرمها الإسلام أمًّا وزوجة وبنتاً وأختاً.

وأهانها بغياً وداعراً، وليس هذا الحكم قاصراً على الملرأة، ولكنه حكم منطبق على الرجل أيضاً، وكما تسلح الرجل

بالإيمان والعلم، كذلك تسلحت المرأة بالإيمان والعلم، وما بلغنا من دين الله عن الرجال ليس أكثر كثيراً مما بلغنا عن النساء، ولم ينقص من علم عائشة أبداً أنها لم تكن سافرة، ومع الحجاب الشديد الذي كان يلفها كانت فقد من أعلم الناس، وعنها أخذنا نصف ديننا...

وهذه الفتاة أم ماطوس التي تلتفع بثوبها ثم تجاس بجانب المجلس تستمع إلى الشيخ وتسائله وتستجيب لنقاش الطلبة وترد عليهم، لم يمنعها ذلك الحجاب أن تتفوق على أكثر زملائها، ولم يدعها علمها إلى أن تلقى عنها ثوب الحياء وترمى بفتنتها بين الناس.

وليست أم ماطوس هي الفتاة الوحيدة التي انتهجت هذا المنهج العلمي وبلغت ما أرادت، وإنما سُقت قصتها لما فيها من عنت السير وبعد المسافة، وإلا فالعلم كان متاحاً للجميع في ذلك العصر...

9 - كان أبو حفص عمروس المساكني من فطاحل العلماء، وكانت أخته 72 النجيبة الذكية ترافقه في دراسته، وتستمع إليه، وتأخذ عنه، حتى بلغت مبلغاً قل أن تصل إليه فتاة. وعندما كان يقوم بالدراسة أو التأليف كانت تقدم إليه من المساعدة ما هو في حاجة إليه. فتجمع له مادة التأليف، وتلخص له مواضيع البحث، وتعد له مناهج الدراسة، وتساعده في الكتابة، فتملى عليه، أو تتلقى عنه الإملاء فتكتب، وهكذا وجد منها " سكرتيرة " ذكية وبارعة.

وعندما ذهب إلى الحرب في وقعة مانو رافقته، وقتل أخوها، وقتل أكثر الجيش، وأخذت أسيرة مع بعض زميلاتها فخافت الفساد، فقالت لزميلاتها :أما وقد وقعنا أسيرات ولا قدرة لنا على الخلاص من أيدي هؤلاء الوحوش فلتستخف كل واحدة منكن من يزوجها بمن يريد بها سوء.

وهكذا حتى في أسوأ الأحوال ينجدها العلم والدين...

هذا نموذج يمثل جانباً من جوانب الفتاة في ذلك الحين، وفي تاريخ هذه الفتاة نماذج أخرى، لها من الروعة ما يبعث على الإعجاب..

10 - كان أبو ميسور يَصْلِتينْ يسكن " أدُونَاطْ " هذه القرية التي تقع بين " تميجار" " وحيطال " في منصف الجبل، متجهة إلى الغرب، وكان كما قال فيه أبو الربيع : عظيم القدر في الإسلام، علماً وعملا وورعاً، وكان الإمام في تاهرت يعتبره من المراجع العلمية الحية.

نشأت في كنفه ورعايته بنته73 الذكية النجيبة، ودرست عنه وعن غيره من العلماء ما أبلغها رتبة سامقة من العلم، وكانت بارعة في النقاش، قوية الحجة، حاضرة البرهان...

جاءت إلى أبيها يوماً تسأله عن مسائل الحيض وتصف له بعض ما أصابها، فقال لها العالم الكبير : ألا تستحين ؟ فقالت : أخشى إن استحييت منك اليوم أن يمقتني الله يوم القيامة. فألزمت الشيخ الحجة، ولم يجد لها ردا، وأجابها عن أسئلتها.

وتحدث جمع من المشائخ وكانت حاضرة تستمع إلى

نقاشهم، فقال أبوها : المسلمون أفضل من أقوالهم، فقالت هي : بل أقوالهم أفضل، فإن المسلمين يذهبون، ولكن أقوالهم تبقى إلا أن تريد فضل الأجسام على الأعراض وإلا فليس هناك شيء أفضل من العلم.

وهكذا استطاعت أن تأخذ زمام المجلس وهي في سن المراهقة.

وجلست ذات يوم إلى أبيها بعد أن فرغت من غسل ثيابها ونشرها تتحدث إليه حديث الطفلة المحبوبة إلى والد حنون، ونظر الأب إلى الثياب، فقالت : أتمنى لو جعل الله تطهير قلبي إلى يدي فأغسله مثل الثياب وأبعثه إلى خالقه نظيفاً، فقال الشيخ معجباً ببنته الذكية : إنم أبلغ مني حتى في الأماني...

وتدللت عليه يوماً فغاضته، فقال لها : لأزوجنك بمن له عليك سبعون حقاً... ولم تفر هاربة، كما قد تفعل بنات اليوم، ولكنها أجابته في ظرف وكياسة : إذن أردهن إلى ثلاث : إن دعا أجبت، وإن أمر امتثلت، وإن نهى اجتنبت...

هذا نموذج من فتاة الأمس المتحجبة، فهل منعها الحجاب أن تصاول فطاحل العلماء وتقارعهم بالحجة، وتفحمهم بالبرهان، وتتغلب عليه بالأدب والبر والكياسة.

لقد استعرضت عدداً من النماذج عن حياة الفتاة... فما هي حياة المرأة الكبيرة ؟ وما أثرها في المجتمع ؟ وما سلوكها في البيت والأسرة ؟..

11 - كان أبو يحيى الأدلي رحمه الله من العلماء العاملين

لـم يتزوج حتـى تقدم به العمـر، ودخل ذات يوم إلى بسـتان من بساتينه يجمع العنب، فمر به رجل نصراني يسكن البلدة، فدعاه ليأكل العنب، وسر النصراني بالدعوة فجاء معه بأهله، وكان له بنات مظهرهـن عن الجمال والأدب وكمـال العقل، فأعجب بهن أبو يحيى، وحدثه في شـأنهن، فقال النصراني: إن جاز في دينكم زوجتـك إحداهن، واختار أبو يحيـى أم الخطاب74، وكانت أجملهن وأكملهن عقلا.

فلمـا أوى إليهـا فـي الليل حدثها عن الإسـلام، وشـرح لها قواعـده وأصولـه، ثم خيرهـا بين الإسـلام والرجوع إلـى أهلها، وكانـت أعجبـت بالرجل وبخلقه ودينه، وفهمت من الإسـلام ما لـم تعرفه من قبـل، وتذكرت أنها حتى لو بقيت مسـيحية فإن المسيحية لا يجوز لها أن تفارق زوجها.

وهكـذا شـرح الله صدرها للإسـلام، وجاءت أمهـا تزورها في الصباح فوجدتها مسـلمة، فقالت لها : كنت أرغب أن لا تتركي دينك أبداً، أما وقد فعلت فكوني من خيار أهل دينك الجديد...

وبـدأت هذه المرأة التي أسـلمت حديثاً فـي حفظ كتاب الله، فلم يمض عليها زمن طويل حتى عرضت على زوجها سورة البقرة وآل عمران في حفظ جيد، أعجب به أبو يحيى، وجدت في دراسـة الإسـلام ومعرفـة أسـراره حتى أصبحـت مرجعاً مـن مراجعه، ومقصداً للعلماء الأعلام، يزورهـا أمثال أبي مهاصر وأبي زكرياء وأبي ميمون.

وقد كانت تروض نفسها على أنواع من العبادة لا يقوى عليها

إلا أصحاب العزائم من المؤمنين الصادقين... ومعبدها في تغرمين من أشـهر المعابد في التاريخ ولعل للإسم الذي اختارته له دلالة على اتجاهها في عبادة الله، فقد سـميت ذلك المعبد " اغرم إيمان " ومعنى هذه الكلمة البربرية، كما فسرها العلامة الشماخي : قصر النفس في مجلس الذكر.

وقد يناسـب هذا المقام أن ننقـل قصة أخرى تمثل كفاح المرأة من أجل العلم والحق، صورة واضحة لما تكون عليه المسـلمة حين تكون طالبة، وحين تكون زوجة.

12 - كان أبـو محمـد التغرمينـي يعيـش عيشـة العلمـاء الزاهديـن، لا يحفـل بالدنيا ولا بما فيها من متـاع، فكان يقضي وقته بين مذاكرة العلماء وعبادة الله وزيارة الإخوان والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحل المشـاكل التي تنجم بين الناس، فكان لا يجد فراغاً من الوقت لغير هذه الأعمال...

زار ذات يـوم أم يحيـى فـي أمسـين وحدثها عن نفسـه وعن عملـه، فلم ترض له حياة العزوبية الطويلة، وذكرته أن الإسـلام لا يدعـو إلى الرهبنة، واقتنع برأي الناصحة الأمينة واستشـارها في أمره.

قالت المربية الكبيرة للشيخ : بين طالباتي فتاة 75 نشأت في جيطال بين أسـرة فقيرة، وفي سنة من سنوات القحط والجفاف ارتحل أهلها طلباً للمرعى والتحقت الفتاة بالمدرسـة وأقامت بين الطالبات المقيمات التي تشـرف المدرسـة على جميع شـؤونهن من التعليم والتربية، إلى النفقة و الإقامة والكسـوة... وهي إلى

ذكائها وأدبها وجدها في الدراسة وتفوقها عل أكثر الزميلات ذات جمال. فرغب من العائلة أن تتيح له التعرف على هذه الفتاة التي قد يقدر فتكون له زوجة.

ورحبت المربية العارفة بأحكام دين الله وما يعطيه من الحقوق للناس فدخلت وأمرت الطالبة أن تأتي لها بجرة ماء من صهريج بجانب المدرسة.

وذهبت الفتاة إلى الصهريج تحمل جرتين إحداهما لها، والثانية لمدرستها، فما شرعت في الاستسقاء حتى وقف إلى جانبها رجل يرسل إليها تحية الإسلام ويطلب إليها أن تملأ له جرة كانت في يده، فردت عليه السلام ولم تضطرب لهذا الطلب من رجل غريب، واستمرت كأن شيئا لم يحدث، فملأت جرة استاذتها أولا، ثم ملأت جرة نفسها، ثم أخذت جرة الغريب.

واعجب أبو محمد يبهذا الخلق، وهذه الرزانة، وهذا الثبات وقال لها : قل لله مزرعة يا جارية ؟ فقالت نعم !.. فقال : وهل له من يحرثها ؟ قالت نعم، قال : نعم، وقال : وهل له من يحصد ذلك الحرث ؟ قالت : نعم ! قال : وهل له مخازن ؟ قالت نعم ! ثم شرعت تشرح له جوابها في فصاحة وبيان، قالت : المزرعة الدنيا، والحراثون الناس، والحاصد الموت، والمخازن الجنة والنار.

وعلم أبو محمد أنه عثر على درة نادرة المثال، وأن أم يحيى لم تأله نصحاً، وأن هذه الفتاة قد جمعت بين الجمال وكمال العقل، والأدب والعلم والذكاء والثبات، وهي صفات قلما تجتمع في شخص واحد...

وذهب أبو محمد عم الفتاة يخطبها، ولكن أقارب الفتاة مانعوا في أن تتزوج فتاتهم بعيداً عنهم في تاغرمين ولهم في بني عمها فتيان أكفاء، ولما رجعوا إليها أخبرتهم أنها لن تتزوج إلا من يرضى عنه عمها. وكان عمها عرف ميولها إلى أبي محمد وإعجابها به فوقف إلى جانبها وأصر أن لا يفرضوا عليها زواج من يحبون هم، ولكنها يجب أن تتزوج من تحب، وانتصرت على تعنت الأهل والأقارب وتزوجت أبا محمد التغرميني، وعاشت مع هذا الزوج الحبيب حياة مليئة بالسعادة والحب والفهم المشترك، وكان من خلقهما أنهما ما نزلا عن فراشهما قط إلا وخالا، حتى لا يبقى على أحدهما من حقوق الزوجية شيء، إنه أدب سام تجلى به أولئك المؤمنون والمؤمنات الذين يعرفون قداسة الحقوق.

ظفر أبو محمد فيها بزوجة محبة، وزميلة عالمة،ومربية قديرة، وسيدة بيت من الطراز الأول، فوثق بها وألقى بين يديها كل مشاكل البيت والأسرة، فكان لا يعرف منها شيئاً.

فلما خطب أبو زكرياء إلى أبي محمد فتاته الحبيبة وطلب إليه أن يجهزها للعرس احتار في أمره وصار يدخل ويخرج دون أن يعرف ما يصنع، وتولت الزوجة الحازمة إعداد ما يلزم، فكلما أحضرت شيئاً سألها : أهذا لنا ! فتجيبه نعم، فيدعو لها وتطمئن نفسه، حتى أتمت تجهيز العروس وزفت إلى بيت الزوجية وهي راضية مستبشرة.

ومع هذه الشخصية القوية التي كانت لأم زعروور زوجة أبي محمد. ومع ثقته الكاملة فيهاا كانت لاتعمل شيئاً دون إذنه

واستشارته...

زارتها المؤمنة الصالحة أم زيد فأفاضت عليها من علمها وخلقها ودينها، ولما أرادت الرجوع طلبت إليها أن تشيعها وأن تفيدها مقابل ذلك ثلاث فوائد، وقبل أن تستجيب أم زعرور لمطلب ضيفتها، ذهبت تستأذن زوجها، وأذن للزوج بل حضها على ذلك فقال لها : شيعيها ولو مت في الطريق ودفنت في " أدبيرن " وأدبيرن موضع في طريق وفيه مصلى لأبي محمد.

ولما كانت بالطريق قالت أم زيد لأم زعرور : من شيع أخاه في الله كتبت له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ولا ينبغي للمسلم أن يبقى بغير صديق يفشي له سره ويشركه في همومه، فإن لم يجده الرجل في الرجال اتخذه في النساء، والمرأة بالعكس، وإذا اتفق رجلان على نكاح فتاة ثم رجع الخاطب أو المخطوب إليه من غير سبب بعد ما فشا أمرهما، فلا يلقى خيراً، ولا يجد بركة...

هذه امرأة لم يعقها الفقر عن الدراسة، ولم يعقها استبداد الأهل عن الحصول على الحق الذي خوله لها الدين وهو اختيار الزوج الكفء المثالي. وهذا لعمري كفاح لو قامت ببعضه إحدى بنات اليوم لملأت الصحافة والإذاعة تبجحا ودعوى. ولكن المرأة في ذلك الحين كانت تعمل كما يعمل الرجل، يستهدفان الحق، ويعملان للمصلحة، ويقومان بالواجب المقدس نحو النفس أو نحو الأمة...

ولعل في القصة الآتية دليلا على إخلاص المرأة لرسالتها

المقدسة، رسالة خدمة المجتمع الإسلامي بنشر العلم والثقافة والخلق القويم...

13 - كانت أم الربيع 76 الوريورية عالمة فاضلة وكان الله قد أنعم عليها بثروة طائلة، ومال وفير، وكانت إلى هذا المال وهذا العلم طيبة القلب، سخية الكف، حية الضمير، تشكر نعمة الله بالإنفاق منها، وتصلح المجتمع بإنشاء المشاريع النافعة، وكان المشائخ يستطيبون الإقامة عندها والإجتماع لديها. للمشاورات والمناقشات العلمية والدراسات الإجتماعية، وقد يطليون الإقامة فكانت تنفق عليهم في مدرستها العامرة التي يتولى الإشراف عليها أبو محمد بن سنتتين ويقوم بالتدريس، والإرشاد فيها وينقطع إلى عبادة الله مع الأخيار بين عرصاتها وسواريها، وكثيراً ما لجأوا إليها للنصيحة، فأنارت أمامهم السبيل وأرتهم طريق الهدى والخير.

والمتحدث عن المرأة الإباضية في ليبيا لا يستطيع أن يمضى دون أن يذكر تلك العجائز التي يطلق على كل واحدة منهن جدة المشائخ، ولعل من الخير أن أذكر في أواخر هذا الفصل الذي عقدته للحديث عن المرأة بعض تلك العجائز...

14 - " نَانَّا مَارَنْ " 77 – نانا كلمة بربرية معناها الجدة، ومارن هو العَلم الذي أطلق على هذه العجوز التي نريد أن نشير إلى حادثة تاريخية كان لهلا فيها الموقف الحازم الذي يحق للمرأة أن تفتخر به.

عاشت نَانَّا مارَن في قرية الجمارى، هذه القرية الجميلة التي

تقع على الضفة الغربية لوادي الزرقاء الجميل، إلى الجنوب من ندباس بمسافة قصيرة، ودرست على العلماء الأعلام هناك وبلغت مرتبة أن تبلغها امرأة، واشتهرت بين الناس بالعلم والصلاح والرأي السديد، ولا يزال مسجدها إلى اليوم مشرفا فوق ربوة عالية يصارع ويطاول التاريخ.

وفي مدينة جَنَّاوَن التي لا تبعد عن الجمارى بمقدار خمسة أميال كان يعيش أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني.

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن يعرف ليبيا ويعرف رجالها فقد بقى سبع سنوات، وأراد أن يختار واليا على ليبيا فوقع اختياره على أبو عُبيدة الجناوني، وعزز هذا الاختيار اتفاق المشائخ عليه.

ولكن أبو عبيدة رفض هذا المنصب الذي يُلقى عليه، وألح عليه الإمام وألح عليه المشائخ ولكن دون جدوى، وطالت المحاولة وشغلت فكر أبي عبيدة، وأخيراً وجد الحل.. قال للمشائخ الذين كانوا مجتمعين عنده يبذلون محاولة أخيرة لا قناعة إنه سيستشير، وغداً يسمعون الكلمة القاطعة، ونظر المشائخ بعضهم إلى بعض علهم يعرفون هذا الرجل الذي يركن أبو عبيدة إليه أكثر مما استمع إلى هؤلاء الأعلام وإلى رجاء الإمام...

ونظر الشيخ بعد صلاة العصر يصعد جبلاً شامخا إلى جهة الغرب حتى بلغ القمة، فظهرت له ربوة مرتفعة نتأ عليها مسجد يشرف على مناظر الزرقاء الساحرة، وقصد المسجد وكانت نانا مارن بجوار المحراب تناجى ربها، فسلم أبو عبيدة وجلس

وأفضى إليها بذات نفسه، وحدثها عن مشكلته، واستمعت إليه كما تسمع الأم الحازمة إلى مطالب الولد المدلل، ثم قالت له : إن تقدمت وأنت تعلم أنه يوجد من هو أكفأ منك فأنت في النار، وإن تأخرت وأنت تعلم أنه لا يوجد من هو أكفأ منك فأنت في النار، , وفكر الرجل الكبير واستعرض الرجال واحداً واحداً ثم رفع إليها رأسه وقال في احترام عظيم : أما في الرجال فلا، ورجع إلى جناون واجتمع في اليوم بالمشائخ وأعلن لهم قبوله لذلك المنصب فقال أحدهم : هيا بنا نزور وقاية هي خير من عمائمنا. وكان لهذا الموقف الحازم من الجدة أثر في تاريخ بنيها لا يزال إلى اليوم يذكر بالفخر والاعتزاز، إن المرأة في ذلك الحين كانت واعية، وكانت عارفة بمجرى الأحداث والتيارات السياسية المعارضة، وكانت تعمل على توجيه الأمة الوجهة الصالحة دون أن تملأ المجالس بالثرثرة، وتشغل الأسماع بالخطب الرنانة، وتقارع الأحزاب على المنابر لتظهر براعتها في الحذاقة لا في نصر المبدأ..

وجدير بي في هذا الفصل أن أذكر أمثلة من وصايا العجائز لتكون عبرة وموعظة لهذه الأجيال.

15 – " نانَّا تابركانتُ السدُراتِيَّة78 " أعظم امرأة عاشت في تلك العصور الطافحة بالإيمان والعلم والخير، وقد اشتهرت بين العلماء، بشهرة لم يبلغ إليها أحد في زمانها، وإذا أطلق لفظ العجوز أو لفظ الجدة أو لفظ جدة المشائخ في كتب الفقة وكتب السيرة، فالمعنى بذلك إنما (العالمة الفاضلة الصالحة).

زارها جمع من العزابة فقالوا لها أوصنا يا عجوز ؟

فقالت : وكيف أوصيكم وأنتم الرجال، منكم الرسل والأنبياء، ومنكم الأمراء والوزراء، ومنكم المؤذنون والأئمة، قالوا : لا بد من ذلك فإن الذكرى تنفع المؤمنين :

قالت : إياكم وكثرة الكلام لئلا تكذبوا، وإياكم وكثرة الأيمان لئلا تحنثوا، وإياكم وكثرة الإدلال لئلا تسرقوا، وإياكم والتهمة لئلا تظلموا.

قالت : زيارتكم طلب حوائجكم، ومصافحتكم مقارعة، واكلكم أكل النهماء، ومشيكم مشِ المرضى، ونومكم نوم الموتى.

قالوا : زيدينا...

قالت : شر الصدور صدر لا رأفة فيه، وشر الأقدام قدم لا تزور في الله، وشر البيوت بيت لا يدخله المسلمون، وشر المال مال لا ينفق منه.

ثم ترجمت لهم إلى اللغة البربرية قول بعض الحكماء. نقَّ العمل فإن الناقد بصير، جدد السفينة فإن البحر عميق، كثر الزاد فإن السفر بعيد، خفف الحمل فإن العقبة كؤود.

أعتقد أن هذه الأسطر كافية للدلالة على مركز هذه المرأة العظيمة، واتساع علمها، ودراستها، ونعرفتها لأسرار الشريعة، وأسرار النفوس.

وإنه لمن المناسب أن أنقل في هذا المقام تلك الوصية الغالية التي بعثتها نفوسية إلى زميلة لها في تاهرت فقالت لها :

لا يأكل خير ما في بيتك غير زوجك، ولا تكشفي رأسك في بيت غيرك ولو كان صاحبه في العراق، ولا تجعلي مدراك في أندر غيرك أرادت بذلك أن لا تبدأ في إشاعة الأخبار قبل أن يتناقلها الناس.

وفي الوصية الأخيرة عبرة يجب أن تفكر فيها فتاة اليوم، وذلك ما طبعت عليه المرأة من كثرة الحديث ونقل الشائعات من مكان إلى مكان.

هذه لقطات أخذتها حسب الصدفة من حياة المرأة الإباضية في ليبيا، ولم أقصد من التقاط هذه الصور إلى كتابة قصص،أو استهواء القراء الكرام بجمال الخيال، ليستطيع كل مشتغل بالقصة أن يجد مادة خصبة في حياة المرأة وكفاحها الطويل في سبيل الحق، ولو فعل لأمد المكتبة الإسلامية العامرة بثروة رائعة من قصص الواقع.

أما أنا في هذا الكتاب فإنني أحاول أن أصور للقارىء الكريم حياة هذا القسم من الأمة العظيمة، وأن أطلعه بقدر الامكان على سيرة أهل المذهب الذين عاشوا في هذا الجانب من الوطن الكريم، وطبيعي أن حياة الأمة وتاريخها لا يتمثل في مظهر دولة لا تحكم بكتاب الله، ولا يستمد من أعمال قواد جيوش يفرحون بما لديهم من قوة فلا يفرقون بين الحق والباطل، ولا في ترف عدد قليل من أصحاب الثروة والمال الذين لا يزِنون القيم الإسلامية إلا بالذهب.

ولكن تاريخ الأمة يتمثل في سلوك الفرد العادي، في عمل

المدرس والفلاح والعامل والتاجر أولئك الذين يَقدمون على أعمالهم بوحي من ضمائرهم، وبضرورة مصالحهم ومصالح أسرهم ومصالح أمتهم - لا في أعمال الذين تأتي إليهم الأواكر فينفذونها كأنهم آلات صماء.

إن تاريخ الإباضية يتمثل في الكلمة الحرة، والفكرة الحرة، والحركة الحرة في البيئة الحرة، لم يقلها صاحبها وآلات التسجيل تنتظر ما يقول، ولم يعلمها وآلات التصوير تواجهه من كل ناحية، ولم ينمقها ليكسب بها مزيداً من الأصوات، ولم يزينها في المعارض أو في المتاحف.

وارجع معي ايها القارىء الكريم إلى بعض الفصول السابقة فستجد صوراً دون رتوش تمثل لك حقيقة الحياة، وحقيقة التاريخ في بساطته وواقعيته.

هذه فتاة متعلمة تناقش أباها في دلال وبراعة، وهذه بنت في أوائل البلوغ تزف إلى بيت الزوجية في فصل شتوي ممطر فتخشى على زينتها، وتشكو حالها إلى أبيها المحب وترجوه مساعدتها، وهذه امرأة كتب عليه القدر أن تتزوج من أجلاف البادية، فتتبعه حافية القدمين، وتصبر على فظاظة الزوج الخشن، وقساوة الصحراء -رغم رقتها ولطفها وثقافتها، وهذه امرأة مؤمنة ترى رجلا يتقدم إلى الصلاة بالناس وفيهم من هو أولى منه، فيرتفع صوتها من ركن النساء تنهاه عن التقدم، كما كان يرتفع صوت أم المؤمنين آمرة بمعروف أو ناهية عن منكر، وهذه عجوز قد درست العلم واختبرت الحياة، وعرفت حلو الزمان ومره،

تلقى بالنصائح الغالية إلى أبنائها، وهذا عالم من العلماء يدعو إليه جماعة من زملائه، وينتقل من بلد إلى بلد ليحل مشكل فتاة أعرضت عن الزواج، وهذا خلاف ينشب بين أخ غيور وأخت تحب أن تستكمل دراستها، وهذه امرأة تهمها قضية المرأة في ذلك التاريخ، فتنشيء مدرسة خاصة بالبنات، وتنشيء فيها قسما لسكنى الغريبات منهن، وهذا جمع من أعلام الفكر يعقدون مجلساً لشأن من شؤون الدولة، فلا يوفقون حتى تعرض قضيتهم على امرأة فتجد لهم الحل...إلى آلاف من الصور التي تمثل الحياة الطبيعية بما فيها من واقعية...

لقد حاولت أن أضع بين يديك صوراً من التاريخ الحقيقي، كما تجرى به الحياة، بعيداً عن ضوضاء السلطان، وطغيان المال، وبما أن الأمة تتكون من العنصرين الأساسين : الرجل، والمرأة فقد حاولت أن أجلو لك صوراً من حياة كل منهما. ولست أدرى هل استطعت أن أقدم إليك المادة الحقيقية لحياة المرأة الإباضية في ليبيا – حياتها وهي تقوم برسالة الأمومة كأحسن ما تقوم بها أم، وتعمل بدين الله كأحسن ما تعمل مؤمنة، وتطلب العلم كأحسن ما يطلب العلم، وتثبت حقها الطبيعي في اختيار الزوج بإصرار، وتشترك في مجالس العلم وندوات الاجتماع بأوفر نصيب، وتقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر كما تقوم مسلمة غيورة على دين الله : أم أن قلمي الضعيف ترنح ان يتم هذه الصورة التي أردت أن أضعها بين عينيك.

مقارنات

فـي هذا الفصل أريـد أن أضع بين يديك أيهـا القاريء الكريم أحداثاً تاريخية وقعت في عصور مختلفة من تاريخ الإباضية في ليبيـا – وكانت حـين وقوعها أموراً طبيعيـة لا تثير الاهتمام ولا تبعث على الأعجاب...

فلما وقعت أشـباهها في هذه العصـور، اعتبرت بعض تلك المواقف بطـولات، واعتبرت تلك الأحداث أوائل تاريخية تكسـب المجد العظيم.

الاكتفاء الذاتي :

اعتبـر غانـدى مـن أبطـال التاريـخ فـي كفاحـه السـلبي للاسـتعمار الإنجليـزي. وذلك لأنه اقتصـر في غذائـه على نتاج الهند، ودعا مواطنيه إلى الاقتداء به، حتى لا يجد المسـتعمرون فـي الهند سـوقا رائجة يشـحنون إليها بضائعهـم، ويتخذون ذلك ذريعة للسـيطرة عليه، وهو موقـف عظيم قدره له التاريخ، ولكن التاريخ حين يشـد ببطولة غاندي ينسـى بطلا آخرا سبق غاندي إلى هذه الفكرة بعشـرة قرون. لقـد كان العلامة الكبير أبـو الليث الجناوني يقتصر في غذائه علـى حليب بقرة يرعاها أو ترعاها زوجه في أراضي جناون الخصبة، وكان يقتصر في كسـائه على ما تنتجه أيدي الجناونيات من أنسـجة الصوف المتينة، وكان

يدعـو إلى الاقتصار على الإنتاج المحلي، حتى لا تتسـرب البضائع المسـترابة إلى البلاد، وحتـى لا يجد الظالمون وسـيلة لدخولها، وكان هـذا الرجل في مقام من التعظيم والاحترام لم يصل إليه أحـد، فإذا تكلـم أنصت العلماء، وطأطأ الحكام رؤوسـهم، إنه لا يقل عن غاندي في عظمة التفكير، ويزيد عليه بكرامة الإسلام، وكل ما ينقصه إنما هو وسائل النشر والدعاية والإتصال.

الثورة البيضاء :

ثار الضباط الأحـرار في مصر، وخلعوا الملك فاروق من العرش، وطوحـوا به إلى المنفى، وحرروا الشـعب المصري من ظلم طويل، وهـذا عمل عظيـم والتاريخ اليوم يشـيد بهـذه البطولة التي تقلـب نظام الحكـم، وتعزل ملـكا دون أن تريق قطـرة دم، ولكن التاريخ الذي يشيد اليوم بهذا العمل المجيد يمر مراً سريعاً بحادث يقع في ليبيا منذ اثنى عشر قرنا.

كان يحكم ليبيا تحت ظل الخلافة العباسـية حكام لا يقلون عـن فاروق ظلما واسـتبداد وبعـدا عن أحكام الإسـلام في ذلك العهد القريب من مطلع الإسلام، وكانت الأمة تتألم في صمت تحت ذلك الحكم المستبد.

وتداعى جمع مـن المؤمنين الأحرار وقـرروا الإطاحة بالظالمين، فاحتلـوا المدينة –طرابلس- واسـتولوا على مركـز الحكم، دون أن يريقـوا قطرة واحـدة من الدم، ثم داعو إليهم الحاكم العباسـي وخيـروه بين البقاء بينهم فردا عاديا مـن أفراد الأمة أو الخروج من ليبيا آمنا موفورا، وكل ما هنالك من فرق بين الثورة البيضاء التي

قـام بها مؤمنون أحرار فـي مطلع الثورة البيضـاء التي قام بها ضبـاط أحرار في هذا العصر، أن الأولـى قامت بتدبير نفر عاديين كل مالهـم من قوة إنما هو محبة الأمة وتأييدها، وأن الثانية حين قامـت كانت تعتمد على سـلطة الجيش وقوته، التي أسـكتت المعارضة قبل استعمال السلاح.

من قضايا المرأة :

تحتـل المـرأة في العصـر الحاضـر مكانـا مرموقا مـن تفكير الإنسـان، وقـد دأبـت الصحافـة والإذاعـة على تمجيـد نفر من الفتيات اسـتطعن أن يثبـتن قوة شـخصيتهن وصلابة إرادتهن حـين التحقـن ببعض الجامعات لإتمام دراسـتهن رغـم معارضة أهلهـن، وانتقاد البيئة لمسـلكهن، وكم صدرت صحيفة تشـيد فلانة أو فلانة التي حطمت التقاليد، وكانت أول فتاة دخلت كلية كذا أو جامعة كذا، والتاريخ حين يشـغل نفسـه بهذه الأحداث في العصر الحاضر، يمر مرا سـريعا على أحداث أخرى قبل عشـرة قرون، حطمت فيها الفتاة الليبية قيود التقاليد، واشـتركت في الدراسة إلى جنب زميلها، تشاركه في المناقشة وقد تفوقه ذكاء وجدا، ومثابرة، في مدينة منبسـطة على جبل " جار إصرا " كانت تسمى الفتاة الذكية عافية التي سميت فيما بعد " أم ماطوس "، درسـت هذه الفتاة في مدارس مدينتها وعن مشـائخها حتى لم تجد عندهم ما تسـتفيده، فرغبت أن تلتحق بالمدرسة الكبرى التـي يديرها المربـي الكبير العلامـة أبو محمد بـن ابراهيم في تمصمص.

والمسـافة بين المدينتين بعيـدة لا تقل عن أربعـة أميال، وفي المدرسة قسم داخلي ولكن للذكر فقط. فماذا تعمل هذه الفتاة لتلتحق بذلك المعهد فتتم دراستها وتبلغ غايتها ؟

عرضـت أمرها على أهلها فعارضوها، ولما الحت في الطلب ثار ثائرهـم، وقـرروا أن يمنعوها حتى بالقوة، وكيف يسـمحون لفتاة فـي عمر الزهور أن تقطع يوميا مسـافة لا تقل عن أربعة أميال منفردة، وكان أصلب الجميع في الموضوع أخوها الغيور، وتطوع أن يحبسها وأن ويقوم بوظيفة السجان، ولكن جميع هذه الوسائل العنيفة لم تسـتطع أن تصد الفتاة عمـا رغبت فيه، والتحقت بالمدرسـة، ودرسـت فيها حتى تخرجت منها، وكانـت فيما بعد مرجعا مـن مراجع العلم والتقوى، وقـل أن يعقد مجلس علمي لا تدعى إليه.

وكان رأيهـا فـي مقدمة الآراء، وكثيرا مـا اضطرت إلى قطع مسافات طويلة لحضور اجتماعات وهي حامل أو مرضع.

ليسـت أم ماطوس الفتاة الوحيدة التي درسـت فبلغت هذه المرتبة السـامقة من العلم... إن الفتيـات بلغن مثل هذا المكان المرمـوق لا ببلغهـن العد، ولكـن أم ماطوس مـن أولئك القلائل اللائـي لم يبالـين نقد البيئـة، ومعارضـة الأهل لبلـوغ الغاية العظميـة، وقـد فَعل فِعـل أم ماطوس عدد مـن الفتيات، ومن بينهن من تحضر مجلس العلم بين الشـباب فتدير على نفسها حصيـرة ثـم تشـترك في الـدرس اشـتراكا حيا واعيـا وهي بين الطلاب...

علـى أن هذه الفتاة التي حطمـت التقاليد وأغضبت الأهل، وحضـرت مجالس العلم، كانت أولا تسـلك سـلوكها هذا تحت مراعـاة مربـين قدراء، أمثـال " أبـي محمد خصيـب " ثم كانت تحافظ على سترتها ولباسها وحشمتها، ثم كانت لا تفتح المجال للاختـلاط الحر، ولا تشـترك فـي نقاش أو حديث مـع أحد إلا في قاعة الدرس.

وهنـاك فرق كبير بـين أن يفتح المجال للفتاة كي تسـتمر في الدراسة حتى تبلغ غايتها تحت رقابة الدين والخلق وحسن التربية ومثاليـة السـلوك، وبين الدعـوة التي ينعق بها اليـوم كثير من الناس إلى اشـتراك الفتى والفتاة في تجربة فرص الحياة بما تحمله كلمـة التجربة من معان، ويدعون إلى أن تبـدأ هذه التجربة من المدرسة...

من قضايا المرأة أيضا :

إن مشكلة تعليم المرأة من أهم المشاكل في العصور الأخيرة، وقـد تضاربت فيهـا الآراء وأختلفت وجهات النظـر، وكان بعض المفكريـن يرون أن الفتاة يجب أن تـدرس بجانب الفتى ابتداء من روضة الأطفال إلى نهاية المراحل الدراسـية، ويرى مفكرون آخرون أن الفتاة يجب أن تسـتقل بمدرستها ومنهجها وأسلوب تربيتها فـي جميع مراحـل التعليم، ويتخذ آخـرون مواقف متأرجحة بين الموقفين السـابقين، وأنا في هذا الفصـل لا أريد أن أعلن عن رأي خـاص في الموضوع، وإنما أريد أن أضع بين يـدي القارىء الكريم رأيا أعلنته ثم نفذته، وقد اتفق عليه أعلام يحسـب لهم حساب في

مجال التربية والتعليم، وذلك قبل عشرة قرون.

اهتمت أم يحيى في ذلك العصر بقضية تعليم المرأة، وكانت درسـت على كثير مـن فحول العلماء، منهـم زوجها أبو ميمون، ولكنهـا رأت ما تلاقيه الفتاة من المشـقة والتعب في الدراسـة مما يضطـر الكثير منهـن إلى الإنقطـاع، ولذلك فقـد قررت أن تنشـىء مدرسـة خاصة بالبنات، وأنشـأت هذه المدرسـة فعلا فـي مدينة " أمسـين " وجعلت فيها أقسـاما داخليـة تأوي إليه الطالبات الوافدات من بعيد، ولم تكتف بهذا بل كانت توجههن توجيهـا اجتماعيا واعيا، ففي الحين الذي تشـجع البعض منهن على الاسـتمرار في الدراسة والتبحر في العلم، كانت تشير عل أخريات بالدخول في معترك الحياة بتكوين أسـرة، أو ترشدهن إلى بعض الأعمال النسـوية المعروفـة في ذلك الحـين ولكنها غالبا ما تمسـك الفتاة في مدرسـتها حتى تطمئن إلـى أنها فهمت واجباتهـا الدينيـة والإجتماعية وتم فيها البنـاء الخلقي،واكتمل لديها مقومات المرأة الفاضلة.

ذلك ما فعلته المرأة المسـلمة منذ عشـرات السنين، وهذا ما نقتبسـه اليوم من علماء النفس والتربية في الغرب، حاسـبين أنهـم سـبقونا إليـه، وأن لهم الفضـل علينا فـي ذلك،ولو رجع المسـلمون إلى تاريخ أمتهم، وراجعوا ماضيهـا البعيد والقريب، لوجـدوا فيـه ثروة صالحـة لأن تكون أساسـا لما وصلتـه حضارة الإنسان في القرن العشرين.

تكوين الجميعات العلمية :

إنه لمن دواعي الشرف لي أن أبدأ الحديث عن هذه النقطة بكلمة للإمام العلامة أبي أسحاق اطفيش، أمد الله في عمره، وأبقاه ذخراً للإسلام، قال في مقدمته عن كتاب الوضع صفحة 9 :

" ولم يمر عصر منذ القرن الثاني للهجرة إلا وجد من مؤلفات علمائه ما يبهر العقول، فبين أيدينا اليوم ما يدل على تلك الذخائر الهائلة، كديوان الأشياخ الذي ألفه سبعة من العلماء في خمسة وعشرين جزءاً، وديوان العزابة الذي ألفه عشرة من الفقهاء، وكل منهما يعتبر دائرة معارف فقهية، وناهيك بتأليف اجتمع على تحريره هذا العدد من العلماء الأجلاء ".

إن تكوين الجميعات العلمية وتأليف الموسوعات تعتبر ظاهرة عصرية، ويحسب كثير من الناس أنها نشأت في الغرب، وسواء صح هذا الحسبان أو لم يصح فإن المسلم في ليبيا يستطيع أن يرجع إلى أسلافه الأماجد ليجد فيهم أولئك القوم الذين يسبقون إلى كل فضيلة، ومن الفضائل تكوين الجميعات العلمية لتأليف الموسوعات، ولست أجزم بأن الجمعية التي ألفت الديوان هي أولى الجميعات العلمية في الشرق الإسلامي، ولكنني لاأعرف جميعة أخرى سبقتها.

ولذلك فلو طلبت أن أتحدث عن أول جميعة تأسست لتأليف موسوعة علمية فإني سوف أقرر أنها جميعة الديوان التي تتكون من هؤلاء العلماء : أبو عمران موسى، أبو عمرو النميلي،

عبدالله بن مانوخ، أبو زكريا يحيى بن جَرناز، جابر بن سَدرِ مام، كباب بن مصلح، أبو مُجْبِر تُوزَّين.

وبعد أن ألف هؤلاء العلماء موسوعتهم الفقيهة، انتشر تكوين الجميعات العلمية في مختلف فنون الثقافة، كأنما كان الباب مغلقاً ففتحه أولئك الأعلام، ثم اندفع إليه الداخلون من بعدهم...

والذي أريد أن أعرضه على القارىء الكريم في هذا الفصل هو أن يعرف الليبي أن أسلافه الكرام قد سبقوا العالم إلى هذا النضج الفكري، وفي هذا الحين الذي يتحدث التاريخ عن هذه الظاهرة الفكرية في الغرب بكل إجلال واحترام، نره يمر بأمجادنا مراً سريعاً، لأن هذه الأمجاد لم تُتح لها أقلام تكشف عنها وتبرزها للناس...

من قضايا التعليم :

يهتم الناس في هذا العصر بقضايا التربية والتعليم اهتماماً كبيراً، وتفتح أقسام داخلية لإيواء الطلاب في كثير من المدارس، حتى في المرحلة الابتدائية، وذلك لتيسير التعليم لجميع الطبقات، ثم للإشراف على تربية الشباب إشرافاً كاملا، وهي خطوة مباركة. ويحسب كثير من الناس أنها فكرة عصرية، غير أن الواقع التاريخي لا يوافق على ذلك.

فقد اهتم الإسلام بقضية التربية والتعليم، وعملوا على تيسيرها للجميع، وذلك بفتح أقسام داخلية في كثير من المدارس يأوي إليها الطلاب الفقراء مجاناً، فيجدون المأوى

والمسكن والإشراف التربوي النظيف، ويأوي إليها الأغنياء على أن يدفعوا النفقات، ولم تكن الحكومات هي التي تشرف أو تنفق على هذه المشاريع، وإنما كان يشرف عليها المصلحون من الأمة، أما النفقات فتجمع عن طريق التبرعات، وقد تكون لبعض المدارس الكبرى أوقاف في هذا السبيل.

وفي بعض فصول هذا الكتاب عدد من المدارس التي كانت تتبع هذا النظام، فيسرت التعليم وأفادت البلاد فائدة علمية اجتماعية لم تصل إليها بعض الدول في هذا العصر.

من قضايا التعليم أيضاً :

تقوم المدارس والمعاهد في هذا العصر برحلات علمية واستطلاعية يشرف عليها الأساتذة وينظمونها، وقد يظن بعض الناس أن هذه الفكرة وليدة العصر الحاضر، أو أنها مستوردة من الفكر الغربي، ولكن التاريخ يثبت عكس ذلك.

فقد كانت الرحلات المدرسية ضمن المناهج الدراسية عند أسلافنا العظام في ليبيا، فكان المربون ينظمون رحلات يذهب فيها فريق من الطلبة أو كل الطلبة تحت إشراف مدرسين قديرين يراقبون الطلبة ويوجهون أنظارهم إلى ما تجب ملاحظته، ويحسن الاطلاع عليه، ويدرسون نفسياتهم ويراعون سلوكهم في حالتي السفر والاقامة، ويعفونهم من قيود النظم في بعض الأحيان لتتاح لهم دراستهم ومعرفة نفسيتهم عندما ينطلقون في حرية كاملة، ولعله من المؤسف ان تقترن إحدى تلك الرحلات بحادث أليم.

فقد كان أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي من فطاحل العلماء، وكبار المربين، وكان من أنشط الربين في القيام بهذه الرحلات التي يدرس فيها نفسية طلابه، ويدربهم على العمل والحياة.

ونزل الشيخ الكبير مع طلابه ليبيتوا بعيداً عن ضوضاء المدن، وكان بنو تيجن – إحدى القبائل الضاربة حول الجبل والتي تعيش على النهب والسلب – كان بعض أهل تيجن قد شاهدوا هذه القافلة الكبيرة التي تنزل للمبيت، فهجموا عليهم على حين غفلة، وقتلوهم جميعاً، وخسرت ليبيا علماً من أعلامها لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، ورغم ذلك فقد درس عليه عدد غير قليل من فطاحل العلم، والكتب مشحونة بآرائه وأقواله.

أحسب أن فيما نقلته من هذه المواضيع الكفاية، وتاريخ الأمة الإسلامية مشحون بمثل هذه الأمجاد، ومثل هذا السبق في مختلف ميادين الحياة.

وكثيراً ما نحسبه اليوم وارداً من الغرب، أو وليداً للعصر إنما سبق إليه المسلمون، ولكنه أغفل في بعض زمن الأنحطاط، والرجوع إلى تاريخ هذه الأمة العظيمة في سير رجالها ونسائها نستطيع أن نكشف عن تراث رائع عظيم...

الزاوي ينحرف عن الحق

الأستاذ الطاهر الزاوي مؤلف مكثر، وقد عنى بالتاريخ الليبي فأصدر فيه فيما علمت ثلاثة من الكتب المتوسطة الحجم،

هـي جهاد الأبطال، وتاريخ الفتح العربي فـي ليبيا، وأعلام ليبيا، وعناية الأسـتاذ الزاوي بالتاريخ الليبي جهد مشكور، وعمل نبيل، وقـد حـاول أن يظهر في كتبـه بمظهر الرجل المنصف السـليم الطويـة، إلا أن قلمه خانه فكانت تصدر منـه اللمزات الخفيفة، والطعنات الخفية، كأنه خائف لا يقوى على الظهور، فهو يستتر خلف عبارات ملتوية أو إشارات بعيدة، ولكنها موفية للغرض.

وإذا كانت ليبيا جزءاً من الوطن الإسـلامي الكبير، تسـكنها أمة مختلقة الأجناس والألوان، فيها البربر والعرب، وفيها السود والبيض.

فـإن المؤرخ السـليم يجـب أن ينظـر إلى الأحـداث التي تقع في هذه البـلاد نظره إلى أحداث تقع من أفراد أسـرة واحدة، فإن الإسـلام ليس له لون ولا جنس، وكما أن الثورات والحروب لم تقع فـي جميع الممالك حتـى تلك التي تتكون مـن جنس واحد ولون واحـد – ما دام هناك ظالمون ومسـتغلون – فـإن الثورات هنا لم تتوقـف، والمـؤرخ المنصف يجـب أن ينظر إلى السـبب الحقيقي المباشـر لكل ثورة أو حدث أو فتنة، والباعث عليها، فليس الثائرون هم المخطيئين دائماً، وليس حقاً أن تولى شأناً من شؤون المسلمين يكتسـب بذلك حصانة يسـتطيع أن يفعل داخلها ما يشاء من استغلال مجهود الناس.

وإنه لتحريف لدين الله أن يفسـر قوله تعالى :] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الأَمْـرِ مِنْكُمْ[بهذا المعنى. فإن أولى الأمر الذين يتحرفون عن دين الله ويحكمون بغير

ماأنزل الله، ويتخذون عباد الله خولا، وأموالهم دولا، ليسوا منا أي ليسوا من المسلمين الذين تجب لهم الطاعة، فإنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأحاديث التي تخرج الفسـاق والعصاة من المسـلمين كثيرة ومتوافرة : (من غشنا فليس منا) 79 فالحاكم الذي لا يتقيد بنصوص الشرع الشريف وأحكامه غاش المسلمين، فهـو ليس منهم، ولا تجب له عليهم طاعة، والذي يحمل عليهم السلاح فيقتل منهم بغير حق، أو يأخذ أموالهم بغير عدل، ليس منهم، ولا تجب له عليهم الطاعة.

ولكن الأسـتاذ الزاوي لم يكلف نفسـه هذا العناء، فهو من أول كتابـه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " قسـم السـكان إلى قسـمين : عرب وبربـر، ثم جعل العرب كتلة واحـدة، وجعل البربر كتلـة واحدة، ثـم جعل يضع علـى كواهل البربـر جميع أخطاء التاريخ، ويلقى عليهم كل أعبائه، وينسب إليهم جميع النقائص التي يمكن أن تنسـب إلى شـعب، وهذا منطق غريب ليس أبعد منه عن الصواب، وأوغل في الخطأ ؛ فإن البربر باعتبارهم جنسـاً، ليسـوا أسوأ من العرب، وأن العرب باعتبارهم جنساً ليسوا خيراً من البربر، وأن العرب والبربر جميعاً باعتبار أجناسهم ليسوا خيراً أو أسوأ من غيرهم من الشعوب.

ولقد كنا نعتقد أن خرافة الجنس الأعلى " السوبرمان " فكرة ولـدت في دماغ هتلـر وذهبت معـه إلى غير رجعـة، وبقيت كل السـعوب متسـاوية باعتبار أجناسـها، وإن تفاوتت في أخلاقها وأعمالها ودينها...

ثم لم يكتف الأستاذ الزاوي بذلك، فتحدث عن الخوارج، وجعل مبادئهم تتسرب إلى المغرب الإسلامي، ولما كانت هذه المبادىء هدامة -في نظر الأستاذ الزاوي - فقد تلقاها البربر، وتمسكوا بها، واتخذوها وسيلة لمحاربة العرب.

وعلى هذا النمط سار الأستاذ الزاوي في كتابه أو في كتبه ولم يشفع للبربر أن فكرة الخوارج إنما نشأت في قلب الجزيرة العربية، وأن العرب دافعوا عنها بأكثر مما دافع عنها البربر، ان البربر في المغرب كانوا كما كانت بقية الأمة الإسلامية في بقية الوطن الإسلامي، فيهم عدد غير قليل من الطوائف والمذاهب، فقد كان فيهم شيعة وخوارج ومعتزلة وإباضية وأشاعرة وظاهرية وغيرهم.

ولقد اعتاد الأستاذ الزاوي في كتابه عندما تثور طائفة من طوائف البربر أو قبيلة من قبائلهم بحق أو بباطل أن يسند ذلك العمل إلى البربر جميعاً، فهو نادراً ما يسند العمل إلى القائمين به، ولكن يسهل عليه أن يقول : " فعل البربر كذا " وطبيعي عند الزاوي أن البربر مخطئون على طول الخط، وأنه ليس لهم الحق لا في الحكم ولا في الثورة، ولا حتى في التوجع والأنين.

وهذا فيما أعتقد ظلم للتاريخ وظلم للمباديء وظلم للعقائد، وظلم للناس، وإذا ساغ مثل هذا التفكير عند أمثال الرحالة التيجاني وأضرابه من خدم الولاة الظالمين، أو عند المستعمرين الغربيين الذين كانوا يرون أن الناس إنما خلقوا ليخضعوا لهم، إذا ساغ هذا التفكير عند أولئك، فما يسوغ هذا

التفكير في عقل رجل عالم مسلم، يعيش في القرن العشرين، ويدعو إلى الرجوع إلى دين الله والعمل بكتاب الله، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم.

قد يخيل للقاريء الكريم، وهو يقرأ السطور السابقة، أنني بصدد الدفاع عن البربر، والحقيقة التي أريد أن يعرفها القراء الكرام أنه لا يعني جنس العرب أو جنس البربر، أو غيرهم من الأجناس في قليل أو كثير، فأنا أومن أن إرادة الباري سبحانه وتعالى، عندما خلقت الإنسان، ثم جعلت منه شعوباً وقبائل، وقد أعطت كل شعب أو جنس أو لون من بني الإنسان خصائص ومواهب تساوي ما عند الآخرين، ولا يكون التفاوت إلا في الأفراد، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تهجى قبيلة بأسرها، فإن أي قبيلة مهما كان جنسها أو لونها لها من المواهب والاستعداد والفطرة والخصائص التي تمنحها القدرة الإلهية مثل ما لغيرها من القبائل، وإن تفاوتت قيم الأفراد في القبيلة نفسها، وفي خارج القبيلة.

وأن في هذا الكتاب أتحدث عن فرقةمن المسلمين، تدين لله في مذهب إسلامي، له قواعده وأصوله المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة، عاشت في ليبيا ولا زالت تعيش، ولا يعنيني مطلقاً جنس أفرادها أو لونهم، وأنا أيضاً لا أتحدث على هذه الفرقة، إلا لأنها تكون جانباً من الأمة المسلمة الكبرى، وقد تناولت هذا الجانب بغير الحق أقلام مخطئة وأقلام مغرضة.

وإنه لواجب على رجال الإسلام أن يكشفوا آثار تلك الأقلام المغرضة والمخطئة عن جميع فرق الإسلام.

ومن المؤسف أن الانسياق في تيارات معينة شوه جمال الإسلام عند بعض الفرق.والذي يلتمس الشواهد على هذا الحديث، يستطيع أن يرجع إلى بعض كتب التاريخ، وبعض كتب الرحلات، فإنه سوف يجد من التناقض في الكتاب الواحد ما يبعث على الاستغراب، وقد يجد اختلافا يخجل منه عقل يحترم نفسه، ومن هذه الكتب مثلا كتاب الاستبصار في غرائب الأمصار ورحلة التيجاني وأمثالها.

ومن المؤسف أن بعض من يوثق بهم وبعلمهم مثل ياقوت الحموي يقع في الخطأ الفاحش، لأنه يستمد معلوماته من بعض المؤرخين الذين لا يتحرون الحق، ولا يلتزمون الصدق.

لمزات من الزاوي

في هذا الفصل أريد أن أتحدث مع الأستاذ الزاوي عن لمزات كان يجب أن يتنزه عنها قلم عالم، وكتاب مؤرخ أمين، فإليك أيها القارىء الكريم بعض تلك اللمزات الواردة في كتابه " تاريخ الفتح المبين العربي في ليبيا " قال :

صفحة 104 :

" ومنذ أن خرجوا على سيدنا علي انفتح باب الفتنة في المسلمين فلم يسد بعد، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض. "

هذه الكلمة من المغالطات التاريخية التي يحمل فيها وزر بعض الناس على غيرهم استغلالا لمشاعر العامة والدهماء، وإلا فما نصيب هذه القصة من الحق ؟

ولقد كان في القديم أسباب سياسية باعثة على مثل هذا الكلام، ولكن تلك الأسباب لم تعد موجودة اليوم، فلماذا يندفع الأستاذ الزاوي مع مغالطات ذهبت الدوافع إليها.

إن الفتنة قد وجدت في الأمة الإسلامية قبل أن يوجد من يسيمهم الزاوي بالخوارج، أي قبل أن يختلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع بعض أنصاره ويقتتل معهم وإن العدد الهائل من القتلى الذين ذهبوا في وقعة " الدار " وفي وقعة " الجمل " وفي وقعة " صفين " أكبر بكثير من القتلى الذين ذهبوا فيما بعد بين الخوارج وعلي، والفتنة التي وقعت بين بني هاشم وبني أمية لم يدع إليها الخوارج، والحروب الطاحنة التي وقعت بين بني أمية وبين العباس لم يقدها الخوارج، والمعارك المتابعة التي كانت تقع بين بني العباس أنفسهم وبينهم وبين مركز الخلافة واستقلالهم عنها. إن تلك المعارك لم تكن من تدبير الخوارج..وتتبع التاريخ الإسلامي فإنك ستجد سلسلة من الثورات والحروب في كل ركن من الوطن العظيم، وليست تلك الحروب والثورات من تدبير الخوارج.

فلماذا تلقى على الخوارج إثم تلك الدماء التي أريقت في مختلف أدوار التاريخ- ولا تزال تراق إلى اليوم -بحق أو بباطل، وقد انقرض الخوارج وذهبوا في ذمة الله ؟

ولماذا جُعل باب الفتنة بأيديهم ؟ ونحن نعلم أن باب الفتنة إنما كان في يد أولئك الذين غرتهم الحياة، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فاستبدوا بالأمة وعبثوا بالأمانة، وخانوا الله ورسوله ليحتفظوا لأنفسهم بعزة السلطان.

وليس ذلك من مبادىء العقائد أو الفرق الإسلامية، ولكنها فرص أتيحت لأفراد من الأمة انحرفوا عن سبيل الله، فلجَّ بهم الطغيان في الباطل والجبروت.

وأنا حين أقول هذا الكلام لا أريد الدفاع عن الخوارج ولكنها كلمة حق أهمس بها في أذن مؤلف معاصر جرفه تيار أحداث سابقة، ثم إنني أريد أن أشير إلى اللمزة الصغيرة الخفية التي تنطلق من قلم الزاوي كأنها خائفة فتتوارى. هذه الكلمة : " ولن يُسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض ". من هم أنصار الخوارج الذين يقصدهم الزاوي في كلمته هذه ؟

وماذا يوحي بها ؟

إن المرمى الذي يطوّع إليه الأستاذ الزاوي في هذه الجملة سوف ينكشف في لمزات آتية، وإنني أدع مناقشة فيها ذلك الحين في بعض نقط هذا الفصل.

صفحة 115 :

" وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر، وتدبير مكائدهم، وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله التجيبي رئيس الإباضية، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه " : ولست أدرى ما الذي حمل الأستاذ الزاوي على تكديس البربر وحشرهم في هذه القضية

؛ إن هذه القضية تتعلق بالإباضية، والإباضية مذهب ومبدأ وليسوا جنساً أو لوناً، وأعمالهم في ذلك الحين إنما قاموا بها من أجل الدين أو من أجل المبدأ، وهم حين يقومون بتلك الأعمال لا ينظرون إلى أجناس الناس، لأن الأجناس عندهم متساوية.

ولكن الأستاذ الزاوي لا يريد ذلك، إنه لا ينظر إلى دين القوم ولكنه ينظر إلى جنسهم، وما دام الإباضية يثورون على الحاكم الظالم، وما داموا بربراً فلابد أن يكونوا من مدبري المكائد، وهو منطق غريب لا يجد عليه الأستاذ الزاوي شواهد حتى من المؤرخين المغرضين ؛ فإن تاريخ الإباضية في ليبيا لم يسجل عليهم تدبير ثورة واحدة قبل أن يستحيل إلياس بن حبيب حيث دماء الأبرياء منهم.

فلم ارتكب إلياس جريمته في طرابلس، ولم يزد أخوه عبدالرحمن عن نقله من ليبيا ليوليه أعمالا في جهات أخرى، ولم يستجيب إلى حكم الله فيقتل القاتل ؛ لما وقف عبد الرحمن بن حبيب هذا الموقف يحتضن أخاه، وبنصره على الباطل ثار الإباضية، وحق لهم أن يثوروا.

وإلياس هذا الذي ثار الإباضية عليه، وطلبوا القصاص منه، رجل رفعته الظروف إلى أن أصبح والياً على طرابلس، فقتل عبدالله بن مسعود التنجيبي، وأراد أخوه عبد الرحمن أن يحول دون القصاص منه، فدعاه إليه في القيروان وولاه على بعض الأعمال، ولكن هذا الرجل المتعطش للدم بهذا.

ومرض عبد الرحمن فذهب إليه إلياس يزوره، فلما وجد منه

غرة وثب عليه وأغمد خنجره الحاد في صدره، واحترز رأسه، ثم خرج يعلن للناس قتله لأخيه وتوليه الحكم عليهم.

وهكذا تنكر لمبادىء الإسلام، والشرف، والإنسانية، والقرابة، ولم يعرف أي حق للأخوة : أخوة الدين أو أخوة الدم، أو حتى أخوة الجنس التي يقدسها الأستاذ الزاوي.

هذا هو الرجل الذي سبب أول ثورة للإباضية على الظالمين، فهل يلام شعب يثور على حاكم ظالم يقتل الأبرياء بغير ذنب، بل تصل به الدناءة إلى أن يغدر بأخيه الأكبر الذي طوق جيده بالنعم، فيقتله غدراً في داره لينصب نفسه حاكما، ولم يكتب له أن يستمتع بالحكم الذي انتهك من أجله أقدس الحرم فقتل بخنجر ابن أخيه بعد أيام من حكمه.

أين الفتنة في هذا ؟ وأين تدبير المكائد ؟

أعند هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ أحكام الله، أم عند هذا الوحش الذي يتنكر لأبسط مبادىء الإنسانية فيلغ في الدماء كما يلغ الكلب العقور، ويبيح جميع ما حرم الله ليصل إلى الحكم ؟

فهل يلام الإباضية أو غير الإباضية حين يضربون على يد هذا الطاغية الظلوم، ويحسبون شره على المسلمين ؟ وهل تعتبر ثورتهم هذه تدبيراً للمكائد ؟ ونزوعاً إلى الفتنة ؟...

إن الأمة الإسلامية لو حافظت على مبادىء الإسلام، فضربت على أيدي العابثين، وطهرت مناصب الحكم من الوصوليين والانتفاعيين لما نكبت بما نكبت به، وإن المصائب التي أنصبت

عليها في جميع أقطارها كان السبب الأول فيها هو وصول غير الأكفاء إلى مناصب الحكم، ثم استبدادهم به، دون رجوع إلى دين الله، واستخفافهم بحقوق الناس من أموال، ودماء، وأعراض.

وكان حقاً على الأستاذ الزاوي وهو يكتب التاريخ في القرن العشرين ليجمع شتات الأمة في وحدة الهدف الإسلامي.

كان حقاً عليه أن يسرد تلك الحوادث مجردة كما وقعت، أما إذا أراد أن يبدي فيها رأيه فكان حقا عليه أن يعلق بما يمليه الحق والعدل، ولكن قلم الأستاذ الزاوي ينحرف عن الحق فيسكت عن المجرم الذي أراق الدماء البريئة وتعدى حكم الإسلام... ويرمى المظلومين الذين يطالبون بتنفيذ حدود الله بأنهم قوم يتلمسون أسباب الثورة، وينزعون إلى الثقة، ثم يلجأ كما هي عادته إلى البربرية والعروبة فيقول :

" وما زال العرب يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم " و " أخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام ". " وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة".

هذه لمزات ينثرها الأستاذ الزاوي في غير موضع من كتابه، وهو في ذلك يمزج بين العنصرية والمذهبية، فيربط بين الجنس والعقيدة، ثم يرتب على ذلك أحكامه حسب العوامل النفسية ورواسب العصبية، وتطغى عليه هذه الرواسب فلا يستبين الحق، ولا يرجع إلى أحكام دين الله، ولا يزن أعمال الناس بميزان الشرع العادل، وإنما ينساق في موكب الظالمين، يحدو لهم، ويبرر أخطاءهم، وينقد مخالفيهم، كأنما كان يعيش في تلك القرون،

ويتلقى العطايا من أيدي أولئك الظالمين المترفين.

وهذا موقف غير شريف يقفه عالم مسلم، فإن امتداح الظلم وأهله، والتصفيق للطغاة والجبابرة، والسير في ركاب المستعبدين الظالمين في ذلة وهوان شنشنة ذهب بها الزمن فلن تعود، وتنزه عنها حتى أولئك الذين لم يكرمهم الله بالإسلام.

3 - ويقول الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " صفحة 119 :

" وكان – أي أبو الخطاب – من أشد خصوم سياسة العرب في أفريقيا، وقاتلهم انتصار لمذهبه، وقد أخلص للبربر إخلاصا جعله منهم في محل التقدير والإعجاب".

إن أبا الخطاب – الذي يتحدث عنه الأستاذ الزاوي بمرارة في هذه السطور – عربي ثابت العروبة، بايعه سكان ليبيا من الإباضية وغيرهم إماما ليحكم فيهم بكتاب الله.

وأبو الخطاب رجل يعتز بإسلامه، ويعتز بأخلاقه، إنه يعتز بدينه لا بجنسه، وما الجنس عنده إلا خرافة لا يستمسك بها إلا المهازيل، ولم يكن أبو الخطاب ينقم على العرب أو البربر، ولكنه كان ينقم على الطغيان عند أصحاب الحكم، وعلى الانحراف عن الدين الحق ؛ إنه كان يثور على تلك السياسة التي ينتهجها ذووا النفوذ من العرب والبربر جميعاً ما لم تتقيد بقيود الإسلام، لأن الأستاذ الزاوي لا يعير الحكم الإسلامي أي اهتمام في هذه الناحية، فهو غارق إلى أذنيه في قضية العصبية، ويرى أن ما يعمله العربي يجب أن يكون مقبولا، ومن عارضه بإحدى التهمتين الخطيرتين :

أن يكون من البربر أو أن يكون من الخوارج.

ولما لم يجد الأستاذ الزاوي ما ينتقده على أبي الخطاب قبل أن يبايع بالإمامة على ليبيا، وبعد أن تولى أمر المسلمين – لما يجد ما ينتقده عليه لجأ إلى إثارة عواطف الدهماء واستنصر بقضية العرب والبربر كما هو شأنه في كامل كتابه فقال: " وكان – أي أبو الخطاب – من أشد خصوم سياسة العرب في أفريقيا "

إن الخصومة ليست بين العرب والبربر كما أراد أن يصورها الأستاذ الزاوي، ولكنها بين طائفة من الناس استولوا على الحكم أما بطريق القوة أو التخويف أو التضليل بتمويه الحقائق في نظام الحكم الإسلامي، حتى أضفوا على أنفسهم شرعية الحكم، وبين طائفة أخرى لم يؤثر عليها الإغراء، ولم يرهبها التخويف، ولم يجز عليه التضليل والتمويه، فوقفت موقف المعارضة تطالب بالاستمساك بدين الله وتطبيق أحكامه. بالقول حين يجدى القول، وبالثورة البيضاء أو الحمراء حين يصر المنحرفون عن دين الله على موقفهم، ومن ظلم الحقيقة، ومن ظلم التاريخ، ومن ظلم الإسلام، أن نقول إن هذا الموقف البربر فقط، أو موقف العرب فقط، أو موقف المسلمين الذين آمنوا برسالة الإسلام، وتأدبوا بأدب محمد صلى الله عليه وسلم، وعز عليهم أن يغلب الشيطان أصحاب الحكم فينحرفوا بدين الله عن مجراه، فواقفوا في كل ركن من أركان الوطن الإسلامي يحاربون الباطل الذي استعلن فادعى لنفسه شرعية الحكم، دخول لها الاستبداد والفساد، وأرسل أبواق الدعاية تلفق التهم وتختلق الأكاذيب، وتحدث من الضجيج ما تود أن تستر به دعوة

الحق والحرية المنبعثة من المؤمنين الصادقين في كل فرقة من فرق الإسلام.

ومنذ اختار الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أصحابه، وساوى بين الرومي والحبشي والفارسي والغربي، انصهرت القوميات والجنسيات في الدين، وأصبح الرباط الذي يربط المسلمين هو رباط العقيدة ؛ الرباط الذي اختاره خالق الإنسان ليكون العلاقة المتينة بين أفراد الإنسان، واقتنع المؤمنين بذلك وآمنوا وعملوا به، ولم يعد يلتجئ إلى الجنس أو القومية من العرب أو البربر أو الفرس أو غيرهم من الأجناس المسلمة إلا أولئك الذين يريدون أ. يكسبوا مشاعر الدهماء من الناس، وأن يستغلوا ذلك لأغراض دنيوية بعيدة عن الإسلام وعن روح الإسلام، وإن قلما يقسم الأمة في أوطانها المختلفة، فيجعل منها قوميات متباعدة، أو يقسم الأمة في دولة من دولها فيجعل منها أجناساً متناكره لقلم أثيم.

وفي الفقرة يقول الأستاذ الزاوي في حديثه عن أبي الخطاب: " وقد أخلص أبو الخطاب للبربر أخلاصا جعله منهم في محل تقدير " وهذا لعمري تجن على التاريخ وظلم للحقيقة، فإن أبا الخطاب أخلص لدينه، وأخلص لإسلامه الذي يرتفع به عن وضاعة النظر إلى أجناس الناس وألوانهم ولقد كافح أبو الخطاب المنحرفين عن دين الله من العرب والبربر على السواء، فقاتل الحكام الظالمين من ولاة الدولة العباسية، وقاتل الحكام الظالمين من مذاهب الصفرية والمعتزلة، لا ينظر إلى أجناسهم ولا إلى ألوانهم، ولكن إلى أعمالهم، وسيف أبي الخطاب الذي

طهر القيروان من عبث عبد الملك الورفجومي هذا الرجل الذي لم يلامس الإيمان إلا قليلا، فسولت له نفسه أن يعيث فساداً في المدينة الصحابية الكبيرة، ويربط الدواب في مساجدها العامرة، فلو كان أبو الخطاب مخلصاً للبربر – لأنهم بربر فقط – لوضع يده في يد عبد الملك وازداد بذلك قوة ونفوذاً...

إن أبا الخطاب مسلم قبل أن يكون عربيا أو بربريا، وهو لم يعمل للوصول إلى الحكم وإنما أرغمته عليه الأمة إرغاما، وهددته بالقتل إذا امتنع، وذلك حين ضج الناس من الظلم، وأصبحت الحرم التي قدستها الشريعة منتهكة، فقام بأمر الأمة، ودافع المنكر في أي مظهر ومن أي جنس، وحكم البلاد كما حكم عمر ابن عبد العزيز زمناً قصيراً ؛ ولكنه كاف لإقامة حجة الله على البشرية ؛ فقد ذاق فيه الناس النزاهة والعدل والمساواة واللجوء إلى كتاب الله فيها دق رجل من أمرهم.

فلماذا يأتي الأستاذ الزاوي بعد اثني عشر قرناً ونصف ليلمز أبا الخطاب هذه اللمزات الجائرة...

4 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 120 : " وهذه الكلمة- أي لا حكم إلا لله 80 – التي اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا علي، وأصبحت شعاراً لهم، ولا ندرى كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج. " إن الأستاذ الزاوي وهو يكتب تاريخ ليبيا كان أسير فكرة معينة، هذه الفكرة تتلخص في أن سكان ليبيا ينقسمون إلى قسمين : بربر وعرب، وأن البربر تجمعهم جامعة واحدة هي أنهم خوارج، فهم بين

رذيلتين في نظر الزاوي، كونهم بربراً، وكونهم خوارج، وهم لذلك يجب أن يتحملوا جرائر التاريخ، وعندما يثورن يقف الأستاذ الزاوي موقف القاضي الحازم دون أن ينظر إلى الموضوع، أو أن يستمع إلى دعوى الطرفين ويصدر حكمه بإدانتهم، وعندما يتنصلون من تهمة ألحقت بهم أو ضلالة نسبت إليهم ويقيمون على ذلك الأدلة والبراهين، يبتسم الأستاذ الزاوي ابتسامة صفراء، ويهز رأسه هزة خفيفة فيها مسايرة ظاهرة، وفيها تكذيب داخلي قاطع، فإذا بدرت من أحدهم كلمة أو إشارة، مال في جد ووقار إلى يمينه وإلى شماله يقول في صرامة: ألم أقل لكم إن هؤلاء يكذبون، إنهم بربر، وإنهم خوارج، أرادوا أو لم يريدوا. ياسبحان الله، لماذا هذا التحامل كله، إن هذا انحراف عن الصراط السوي، وابتعاد عن إعطاء النصفة والحق...

ماذا تعنى كلمة " لا حكم إلا لله " وما هي الظروف التي نشأت فيها، ولماذا يغضب عليها الأستاذ الزاوي ؟ إننا لكي نجيب على هذه الأسئلة يجب أن نستعرض الفترة التاريخية التي ولدت فيها هذه الكلمة وموقف الأمة منها.

خالف معاوية بن أبي سفيان إجماع الأمة، وأشعل نار الفتنة، وجهز جيشاً لمحاربة الخليفة الشرعي الذي اختاره المسلمون، وقابله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بما يقابل به خليفةشرعي فئة باغية ؛ فجهز جيشا من أبطال الإسلام، وقاده بنفسه والتقى الجيشان في صفين، وابتدأ القتال. وعرف معاوية أنه إذا لم يلجأ إلى الحيلة فإنه سوف يخسر القضية في أقرب مما يتوقع، ومهد لذلك بتكوين طابور خامس في جيش علي، ثم دعا إلى التحكيم.

وعرف علي وعرف الصحابة مقصد معاوية من التحكيم، وأنها إحدى المكائد التي تفتق عنها ذهن عمرو بن العاص، ولذلك قال علي : إنما قاتلناهم بكتاب الله، وأصر هو وأصحابه على الجهاد، ولكن الطابور الذي كان يقوده أكبر صنائع معاوية الأشعث بن قيس كان قد عمل عمله في الجيش ومالت الأغلبية إلى قبول التحكيم، وحينما كان علي والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقية الجيش بصواب موقفهم ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية التي لجأ إليها الفريق الباغي، لخص أحد أصحابه موقفهم في هذه الكلمة المشهورة " لا حكم إلا لله " وكانوا يصيحون بها في جوانب الجيش ويرددها أنصار علي في كل موقف، وكان علي يستمع إليها راضيا بها وهو يناقش الناس ويدعوهم إل التمسك بمضمون هذه الكلمة، وعدم الانخداع بحيل معاوية، لأن قصتهم واضحة، وقد حكم فيها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات...

وشاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى لحكمة يعلمها أن لا تستجيب الأغلبية لعلي، وأن تميل أكثرية الجيش إلى دعاة الهزيمة، وأن يتغلب الأشعث بن قيس – صنيعة معاوية – على المناضلين من أجل الحق، فيجد الإمام نفسه مضطراً إلى التخلي عن مبدئه، وترك الصفوة من أصحابه ليحافظ على الأغلبية، ويسير معها ؛ فرضى بالتحكيم مرغماً، وإلى هذه اللحظة التي رضى فيها علي بالتحكيم وموافقة الأغلبية، كانت كلمة – لا حكم إلا لله – تعبيراً عن موقفه، وشعاراً لمبدئه، بل إنها تعبير وشعار لكل مؤمن يُحكم كتاب الله فيما شحر فيه خلاف بينه وبين الناس.

وانعزل معارضوا التحكيم إلى جانب، واستمسكوا بموقفهم الذي كانت تعبر عنه هذه الكلمة أصدق تعبير، ونشأ عن هذا التطرف موقف آخر متطرف كل التطرف، فإن الكلمة حينما أطلقت وقصد منها أنه لا يجوز للناس أن يُحكموا فيما نزل فيه حكم الله ؛ وذلك ما فهمه الإمام علي ورضي به، وفهمه المعارضون وعملوا به، ولكن ناساً من المتطرفين فيما بعد، زعموا أنه لا حاجة إلى الإمارة، وأنه لا داعي لأن يكون للمسلمين حكومة، وحمَّلوا كلمة " لاحكم إلا لله " هذا المقصد الهدام ؛ وهذا التطرف هو ما سخطته الأمة، وردته عنهم، وتولى الإمام علي شرحه بإسهاب وإيضاح، لا يبقى بعده إشكال.

قال الإمام علي يرد على أولئك المتطرفين الذين خرجوا بكلمة " لا حكم إلا لله " عن معناها الذي وضعت له 81 : " كلمة حق يراد بها باطل – نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لابد للناس من أمير بَرَّأو فاجر، يعمل في أمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ فيها الأجل، ويجمع بها الفيء، ويقاتل فيها العدو، وتؤمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح برٌّ، ويستريح من فاجر "

فهل يرضى الأستاذ الزاوي أن يكون الإباضية على رأي أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، فيعترفون أن كلمة " لا حكم إلا لله " كلمة حق كما يعترف بذلك أمير المؤمنين، فقال نعم إنها كلمة حق. فإذا تنطع متنطعون فأرادوا بها الباطل وتطرف متطرفون فزعموا أن الأمة ليست في حاجة إلى الإمارة، فإن الإباضية يردون هذا الباطل كما ورد الإمام، ويدفعون هذا التطرف كما دفعه ولا

كما يحملونها غير المعنى الحقيقي الذي وضعت له...

فهل يظن الأستاذ الزاوي أن أمير المؤمنين كان من الخوارج لأنه ينطق بكلمة " لا حكم إلا لله " ويعترف بأنها حق، ويتخذها شعاراً، وهو يحارب خدع المحتالين، وكيد الكائدين، فلما جاء قوم وخرجوا بها عن معناها وعن الغرض الذي قيلت فيه، شرحها شرحه الخالد الذي حدد فيها حدود الحق والباطل، فنص أنها كلمة حق، وأن الباطل فيها هو هذا التطرف والغلو، الذي يزعم أن الأمة لا حاجة لها في الإمارة، فرد عليهم رده الحاسم – ومن المؤسف أن المتطرفين من الجانب الثاني حملوا كلام الإمام علي غير ما يريد.

وابتسروا منه جملة واحدة يؤيدون بها ما يريدون، وعندما يسمعون كلمة " لا حكم إلا لله " يردون بسرعة " كلمة حق أريد بها باطل " ولا يحملون أنفسهم مشقة الفهم : فهم سياق الكلام، الذي شرح به الإمام هذه الجملة، فلا ينظرون إلى قوله : " نعم إنها كلمة حق " ولا إلى قوله الذي أوضح به موضوع النقد : " ولكن هؤلاء يقولون " : " لا إمرة إلا لله ".

إن أمير المؤمنين لم ينتقد كلمة الحق وإنا انتقد التطرف فيها، والخطأ في فهم معناها، والإباضية كسائر المسلمين ينتقدون هذا التطرف وهذا الخطأ

فهم لا يحفلون بآراء الناس فيما نزل فيه حكم الله، وهم يدعون إلى تكوين دولة مسلمة ترعى الأمة المسلمة، ويطالبون أن تكون الدولة مخلصة في العمل باحكام الله، فإذا انحرف ولاة

الأمـر عن دين الله طالبوهم بالرجوع إلى دين الله.

ولـو تأمل الأسـتاذ الزاوي سـيرة الأباضية فـي مختلف أدوار التاريـخ، ووزنهـا بميزان الحق، مبتعـداً عن المؤثـرات الخارجية، التي تركت في نفسه رواسب تحول دون الإنصاف، لكان حكمه عليهم أنزه، وموقفه معهم أشـرف وأكرم، وكفاهم وكفى نفسـه هذه اللمزات المتنثرات ...

5 - قال الأستاذ الزاوي في كتابه السابق ص 122 :

واسـتولى أبو الخطاب على عسكره – أي عسكر أبي الاحوص العجلى – ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس، وكان ذلك سنة مائة واثنتين واربعين هجرية.

هـذه لمزة خفيفة، قد يكون الأسـتاذ الزاوي اسـتند فيها إلى مؤرخين لا يتحرون الحقيقة ولا يستحلون الوقائع كما هي.

وإلا فإن الأسـتاذ الزاوي يعلم أن أبا الخطاب لا يستحل أموال البغاة من المسـلمين، ولايسـمح لجنـده أن يغنموا منها شـيئاً، وقضيـة أبي الخطاب مع جميل السـدراتي واضحـة الدلالة في هذا الموضوع.

فـإن أبا الخطاب بعـد أن انتصر على ورفجومـه في القيراوان، واستسـلمت لـه المدينـة، تفقـد القتلـى فوجد واحـداً منهم مسـلوباً وسأل عن السـالب فلم يعرفه، فاصدر أمره في الجيش أن يـرد السـلب الذي أخذ من القتيل، ولكن أحـداً لم يبادر إلى رد ما سـلب، وفي الطريق جرى سـباق بين الفرسـان واشـترك فيه جميل السـدراتي، فشـاء له سـوء حظه أن يسـقط عن فرسه

ويتكشـف سرجه عن المتاع المسـلوب، فأخذه الإمام وأجرى عليه الأدب، وغضـب جميل وفـر إلى العـراق، وبقي سـنة كاملة في بغداد يحرض الخليفة أبا جعفر المنصور على أبي الخطاب لينتقم لنفسه.

هذه قصة جميل السـدراتي ملخصة، وإن إماماً يعاقب فرداً واحـداً مـن الجيش غره الشـيطان فأخذ قتيل، لا يمكـن أن يغنم الغنائم الكثيرة، ويرجع بها إلى طرابلس.

على أن سيرة أبي الخطاب في الحروب معروفة، وحكم الإسلام في هذا واضح لا غموض فيه ولا إبهام.

وتاريـخ الإباضية فـي حروبهم مع الموحدين جرى على نسـق واحد لا طغيان فيه ولا تعدى، ولا أستحلال لمرض أو غنيمة لمال.

وكمـا نظفت يد أمير المؤمنين على بـن أبي طالب من أموال أتبـاع طلحـة والزبيـر وأمـوال معاويـة، وجميـع مـن حاربه من المسـلمين، كذلك نظفت أيدى الإباضية من أمـوال محاربيهم، وإنك لتسـتطيع أن تضع كشـفا بأسـماء من ولـى الحكم في ليبيا من الإباضية، فتكتب أسـماء : الحارث بن تليد : أبي الخطاب عبدالأعلـى : أبي حاتم الملـزوزي : أبي منصور إليـاس : أبي عبيدة عبـد الحميـد الجناوني : أبي الحسـن أيوب بن العبـاس : أبي زكريا التندميـري : أبي زكرياء الباروني : أبي يحيى الأرجاني : أبي محمد الدرفـي : أبي عبـدالله اللالوتي، وعشـرات غيرهم، فسـوف تجد أن هـؤلاء جميعاً يحرصـون كل الحرص – عندمـا ينتصرون على محاربيهـم مـن الموحديـن – أن لا يتعـدوا فيهم حكـم الله فلا

يقطعون رأساً، ولا يمثلون بقتيل، ولا يجهزون على جريح، ولا يتبعون مدبراً، ولا يغنمون مالا، ولا يهتكون ستراً.

وقد شهد التاريخ أن أبا الخطاب عاقب الجندي الذي مد يه ليسلب قتيلا وأن أبا حاتم هدد بترك القيادة إن لم يرد ما أخذ من المعركة، وأن أبا منصور ترك أحمال الذهب تتناثر في ميدان المعركة دون أن يلتفت إليها، وأن أبا زكرياء جمع ما تركه العدو الهارب من مال وسلاح فأوقد فيه النار؛ وإن قوماً يقفون هذه المواقف لا يصح أن يقول الأستاذ الزاوي في رئيسهم :

" ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس ".

6 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 122 :

" ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر ليغزو أفريقيا، فلا يمكن أن يصل واحد من عشرين من جيش البربر، الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش، ولكن النصر بيد الله والله مع الصابرين. "

هذه زاوية كثيراً ما يلجأ إليها الأستاذ الزاوي، وهو يريد أن يوحي إلى القراء الكرام أن الثوار الذين يقاومون ظلم الأستبداد مبطلون، وهو يزعم أن الجيوش الثائرة أو فرد عدداً من الجيوش الظالمة، فإذا انتصر العدد القليل فذلك يعنى أن الحق بجانبهم، ولندع النصر والهزيمة بيد، فإن حكمة الله في مداولة الأيام بين الناس لا يعلمها إلا هو.

ولكنه يحق لنا أن نناقش الاستاذ الزاوي – الذي يدعى أن الخلافة العباسية لا تستطيع أن تجهز جيشاً يبلغ واحداً من

عشرين مما يستطيع البربر أن يعدوه – وأن نفند له هذا الزعم استناداً إلى منطق الواقع، ودلالة التاريخ، ومجرى الحوادث، غير خاضعين للعواطف، ولا متأثرين بالإيحاء.

كلمة الأستاذ الزاوي السابقة وردت تعليقاً على الحروب التي وقعت بين محمد بن الأشعث القائد العباسي، وأبي الخطاب الذي بايعه الليبيون إماماً.

فما هي إمكانيات كلا الرجلاين ؟ وما هو عدد الجند الذي يستطيع أن يعده كل واحد منهما ؟

تتلخص إمكانيات أبي الخطاب فيما يأتى : -

حكم أبي الخطاب يمتد ما بين القيروان وسرت، ويشمل الجنوب الليبي التونسي.

كثير من القبائل البربرية لا تخضع لحكم أبي الخطاب حتى في هذه البلاد ولا سيما من كان منها على مذاهب الإزارقة، أو الصفرية، أو المعتزلة.

عدد السكان في هذه المملكة لا يكاد ربع سكان مصر فقط.

ليس لأبي الخطاب جند تتكفل الدولة بالإنفاق عليه ويبقى مستعداً للحرب على الدوام، وإنما يعتمد أبو الخطاب على المتطوعين الذين يحاربون من أجل المبدأ، أو من أجل العقيدة، فإذا دعاهم داعي الجهاد، زودوا أنفسهم وسلحوها، وذهبوا إلى الحرب دون أن يكون لهم أمل في مكسب مادي مطلقاً، فلا أجرة ولا غنيمة، فإذا انتهت الحرب رجعوا إلى أعمالهم الحرة.

هذه إمكانيات أبي الخطاب تقريباً، أما إمكانيات محمد بن الأشعث فتتلخص فيما يلي :

إن الجيش الذي جاء به محمد بن الأشعث إنما جهزه أبو جعفر المنصور.

يخضع لأبي جعفر في ذلك الحين : العراق والشام، والجزيرة العربية ومصر والمغربان : الأوسط والأقصى.

سكان مصر وحدها يبلغون أربعة أضعاف سكان مملكة أبي الخطاب.

لأبي جعفر جند تحت السلاح تدفع الدولة لهم مرتبات دائمة، وعند اللزوم تلتجيء إلى التجنيد الإجباري.

هـ - جهز أبو جعفر هذا الجيش بقيادة محمد بن الأشعث بعد تحريض من خالد الزناتي الذي أراد الانتقام.

بعض الإمكانيات التي كانت تحت يد محمد بن الأشعث، وبالنظر إليها يتضح للقاريء الكريم أن ابن الاشعث يستطيع أن يجهز جيشاً يبلغ عدد سكان مملكة أبي الخطاب – لا عدد جنده فقط – ولا تزال هذه الحقيقة باقية إلى اليوم، فإن سكان المغرب كله بما فيه ليبيا، وتونس والجزائر، والمغرب الأقصى، قد لا يزيدون عن سكان مصر وحدها، فكيف تكون النسبة عندما يكون القسم الأول مقتصراً على بعض ليبيا وبعض تونس، ويضاف إلى القسم الثاني : الشام، والعراق، وما يتبعها.

من هذا ترى أن الأساس الذي يبني عليه الأستاذ الزاوي فكرته لا ظل له من الحقيقة.

ولقد ينخدع القارئ البسيط من التهويل الذي يعتمد عليه الزاوي؛ ولكن معرفة هذه البلاد اليوم وما تشتمل عليه من سكان، وماهي الجيوش التي يمكن أن تعدها ينسف تهاويل الأستاذ الزاوي، ويذيب الإيهامات التي يريد أن يوحى بها.

أما قضايا النصر والهزيمة بين الجيوش المتحاربة فتلك أمور بيد الله، ولها أسبابها ودواعيها،وليست الكثرة أو القلة،والنصر أو الهزيمة هي دلائل الحق دائما، ولا سيما عندما تكون الحروب بين فرق من المسلمين، ولقد انتصر الأمويون على الحسين ولد بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلوه، وقطعوا رأسه، فهل يعنى ذلك أنهم على حق وأنه على باطل؟

وفي هذه المعركة التي انتصر فيها ابن الأشعث على أبي الخطاب نستطيع أن نعرف الأسباب التي أدت إلى نتائجها التاريخية، وتتلخص تلك الأسباب فيما يلى :

1 - ليس لأبي الخطاب جيش نظامي مقيم تدفع له المرتبات من خزينة الدولة، ولا عمل له إلا الحرب.

2 - يتكون المحاربون مع أبي الخطاب من المتطوعين الذين يحضرون عندما تعلن الحرب، معتمدين على أنفسهم في زادهم وسلاحهم، وينصرفون عند نهاية المعارك، ليقوموا بأعمالهم.

3 - دعا أبو الخطاب الناس إلى ملاقاة محمد بن الأشعث فتكون له جيش قوي، ولما علم به ابن الأشعث أظهر أنه عدل

عن محاربة أبـي الخطاب، وأمر جنده بالرجوع إلى مصر، وقتل من عارضه في فكرة الرجوع.

4 - وليس ذلـك كله إلا حيلة يفرق بها جيش أبي الخطاب، ولما سـمع أتباع أبي الخطاب برجوع ابن الأشعث ذهبوا إلى أعمالهم – لاسـيما والوقـت كان وقت حصاد زرع، فلم يبـق معه إلا عدد ضئيل ممن ليسـت لهم أعمال متسعجلة، وما علم ابن الأشعث بانطـلاء حيلته على جيش أبي الخطـاب، وتفرق الناس عنه، حتى أخـذ السـير راجعـاً، وفاجأ أبـا الخطاب فـي قلة، فأعمـل فيهم السـيف، فيقبلون إلى موطن الحرب فرادى وجماعات، فيتلقاهم ابن الأشـعث وهو مسـتقر مطمئن وبيد هذه الجماعات المقبلة، حتى بلغ عدد القتلى في بعض الروايات أربعة عشر ألفاً، وليست هـذه الوقعـة حرباً كالحروب التـي تقع بين جيشـين متصادمين، ولكنـه حكم بالقتل على نـاس يجهل أكثرهم الظروف التي هو مقدم عليهـا، ولكن تتصـور حقيقة الموقعة ضع في حسـابك جيشـاً يتكون من خمسـين ألفاً علـى أقل تقديـر، يهجم على بضعـة آلاف – على حين غفلة – فيقتلهم عن آخرهم، ثم يبقى متربصاً فتقدم عليه شـرادم من النـاس في جماعات تتكون من العشرات – لا من المئات – فيتلقفهم جماعة بعد جماعة، حتى لا يجد المزيد، وحينئذ يسير بهذا الجيش الكبير يتتبع السكان في القرى، وفي المدن ! وفي البادية، يقتل ويسلب ويغنم.

5 - تلك هي صورة الموقعة، ولا داعي فيها للإبهام أو التضليل، وتكثير بعـض الجيوش، وتنقيص غيرها، فـإن الكثرة أو القلة في هذا الصدد لا قيمة لها.

6 - ولعـل أول من خطرت له فكـرة الاحتجاج بالقلة والكثرة، واعتبـر انتصار القلة دليلا على الإيمان، هو الشـاعر الخارجي حيث يقول:

ألفاَ مؤمن فيما زعمتـم ويغلبهم باسك أربعونا

كـذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

فبماذا يجيب الأستاذ الزاوي على هذا الشاعر ؟

إننـى أرجـو أن لا يضيـق تفكير الأسـتاذ الزاوي هـذا الضيق فيعتنق هذا الرأي.

7 - يقول الأسـتاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 146 : "وإن دلـت هذه الخرافة على شـيء، فإنمـا تدل على الطعـن في رواية الأخبار، وقلة التحري في نقلها ".

يقول الأسـتاذ الـزاوي هذا الكلام تعليقا علـى خبر نقله في كرامة نسـبت إلـى العلامـة الكبير الشـيخ مهـدي الويغوي النفوسي، وقد نقل القصة الشماخي فلم يبد فيها رأيا، ونقلها سليمان باشا الباروني فعلق عليها بقوله : " وإن لله خرق العوائد فـلا غرابة " ويظهر أن هذا التعليق من سـليمان باشـا هو الذي أغضب الأسـتاذ الـزاوي، فعلق عليها بالتعليق السـابق، بل لقد اختبرها بمقياس العقل والمنطق فلم تثبت في الاختبار.

ويؤسـفني حقا ان يحد عن الإنصاف مؤلف مسـلم في هذا العصر، فينصب نفسـه حكما في التاريخ يثبت هذا أو يسـقط ذاك، فالأسـتاذ الزاوي نفسـه الذي يسـتكثر هذه الكرامة على

مؤمن من المؤمنين ينقل عدداً غير قليل من هذه الكرامات لأشخاص آخرين رضى عنهم ؛ بعضها أغرب من هذه الكرامة التي يكذبها ويجعلها خرافة، وأنا حين أتحدث عن الكرامة سواء منها ما نقله الباروني أو ما نقله الشماخي أو ما نقله الزاوي أو ما وجد في كتب التاريخ لغيرهم احترس، فلا أزعم أنني أكذبها ما دام أصحابها مشهورين بالصلاح، معروفين بالتقوى.

إن الأستاذ الزاوي الذي يستكثر أن تنسب الكرامة إلى مهدي النفوسي، ويحسب ذلك خرافة ويجعل، نقلها سببا للطعن في اخبار ناقليها وعدم تحريهم، هو نفسه ينقل عدداً غير قليل مما يسميه كرامات في كتابه " أعلام ليبيا " وينقل في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " ما يلي:

" جاء في رياض النفوس : أن عقبة قال في ندائه : أيتها السباع ؟ ادخلوا ! فإنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الناس في ذلك اليوم إلى أمر عظيم نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء تحمل أشيالها، والذئب يحمل اجراءه والحية تحمل أولادها، سمعا وطاعة ".

نقلت هذه القصة عن الأستاذ الزاوي لا لأكذبها ولكن لأبين للقارئ الكريم أن الأستاذ الزاوي لم يكن منصفا وهو يستعرض أحداث التاريخ، فهو في قصة مهدي يريد أن يخضع الكرامة للعقل والمنطق، ولكنه في كرامة عقبة ينسى العقل والمنطق.

وإلا فأي عقل اليوم يصدق أن رجلا يقف بجانب دغل ويأمر ما به من الوحوش بالخروج، فتسمع له وتطيع، ثم تبدأ في تنفيذ

الأمر والناس ينظرون، فإذا بالسباع والذئاب تخرج من بينهم حاملة أجراءها، وإذا بالحيات تحمل أولادها. فاذا صدق العقل هذه الهدنة التي وقعت بين الوحوش فكانت تخرج أسرابا مع بعضها البعض لا يثب الذئب على الظبي، ولا يعدو الأسد على الوعل وقبل هذا الموقف الذي يصور الوحوش وهي تستعرض رشاقتها ؛ فتخرج بين صفوف من الناس الذين وقفوا يمتعون أنظارهم بهذا المنظر الفريد.

إذا قبل العقل كل ذلك وطلب إلى هذا الرجل الذي روى القصة وشاهد الحيات تحمل أولادها وهي منطلقة في زحفها خارج الدغل أن يصف كيف تحمل الحيات أولادها ؟ هل تربطها على ظهرها وهي خارجة تتلوى، وهل كانت تركبها على الطول أم العرض، أم أنها تمسكها من أذنابها الدقيقة وتجرها معها، وهل كانت عاطفة الأمومة عند الزواحف في ذلك الحين أقوى منها الآن، بحيث تحضن بيضها وتنظره حتى يفقس فتتولى تلك الفراخ الزاحفة بالرعاية، حتى إذا انتقلت نقلتها معها ؟.

أليست هذه القصة مما لا يقبله العقل، ألا يدل نقلها على عدم التحري في نقل الأخبار ...

إنني لا أستكثر على عقبة بن نافع هذه الكرامة أو أكبر منها أو أصغر ولا أستكثر على غيره من المؤمنين الصادقين أن يفيض الله على أيديهم ما يشاء من الأسرار.

ولكنني أحادث الأستاذ الزاوي بالعقل الذي يحتكم إليه حينا ويتركه حينا آخر، أما أنا فأحسب أن الكرامة غير خاضعة

لمقاييس البشر، فاذا أردنا أن ندخلها في حساب التاريخ فعلينا أن ننقلها كما رويت لا نزخرفها بالخيال، ولا نشوهها بالنقد، ولا نستكثرها على رجل اشتهر بالتقوى والصلاح، فإن ينابيع رحمة الله وقبول أعمال شخص من الأشخاص ومنزلته عند الله مما لم يكشف عنه الغيب، ولم ترفع عنه الحجب.

والعلماء الذين تحدثوا عن كرامة الأولياء ذهب أكثرهم إلى أن الكرامة لا تأتي مع التحدي فتنقلب معجزة. كما أنها لا تكون تابعة للرغبة والإرادة، ولا تكون بحال من الأحوال لصاحب معصية ...

وكيفما كان الحال فإن المؤرخ النزيه يجب أن يكون له خلق يعصمه من التجني على عباد الله، وأن يتخذ لنفسه مبدءاً يسير عليه، ويحتكم إليه متجرداً عن رواسب العصبية المجنونة ...

8 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 164 :

" أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة، موقف التحفظ، وعدم الأمتزاج، والنظر إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل، وعلى هذا دأبوا، ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا ".

هذه لمزة لئيمة من الأستاذ الزاوي، وهي تناقض نفسها، فبينما يقرر في أول هذا الفصل نفسه : أن دولة الشيعة دولة بربرية، يقول : إن الإباضية يقفون معها موقف التحفظ وعدم الأمتزاج، ثم يزعم أن الإباضية ينظرون إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل.

لماذا ينظر الإباضية إلى الشيعة نظرة الغرباء، ويقفون معهم موقف التحفظ وهم بربر، لو كان للجنس عندهم حساب ؟

عجباً : إن الإباضية يقاتلون " ورفجومة، وصنهاجه، وكتامة " وهي أكبر قبائل البربر، ومع ذلك يرميهم الأستاذ الزاوي بالتعصب العنصري للبربر،ثم يزعم أنهم دأبوا على هذا التعصب العنصري، وأنهم لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا، وهو بهذا الكلام يناقض نفسه، فبينما يزعم في صفحة 164 : أن الإباضية لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا يقول في نفس الكتاب صفحة 126 : " وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب، وأقل نزاعاً معهم، ولذلك تجد أكثر الثوار على أمراء أفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة". انتهى كلام الزاوي بحروفه.

إنني أضع هذا الكلام المتضارب المتناقض أمام القارئ الكريم ليعلم أن الزاوي حينما كان يكتب التاريخ الليبي لم يكن رائده الإنصاف والحق، وانه لم يحمل نفسه عناء التفريق بين اجناس الناس ومذاهبهم الدينية، ومبادئهم الأجتماعية أو السياسية، وأنه كثيراً ما يعمد إلى الغموض والإبهام للتمويه، وأنه لم يصدق في تعليل الأحداث التاريخية، لأن قضية العنصرية كانت تشغل كل حيز في تفكيره، فهو لا يقبس حياة العصور إلا بهذا المقياس، لا يبالى فيها الحق أوالخلق أو الدين.

وإنها لحقيقة تاريخية أن يعرف الأستاذ الزاوي أن الإباضية لم يفكروا يوماً من الأيام في الجنس البشري الذي ينتسبون إليه،

ولـم يفرقوا بين البربر والعرب وغيرهم مـن الناس، فهم يعتبرون المسـلمين إخوة، يتولـون من تثبت عندهم عدالته واسـتقامته، ويبـرأون ممن يثبـت عندهم عصيانه، وفسـوقه، ويقفـون فيمن لا يعرفـون موقـف التحفـظ ؛ هذا الموقـف المحدود الـذي يقفه الإباضيـة مع العـرب، ومع البربر، ومـع الترك، ومـع الهنود، ومع غيرهم من الأجناس، ولو راجع الأسـتاذ الزاوي أحداث التاريخ التي رواها هو نفسـه، ونـزه قلمه وقلبه من الرواسـب التـي تركتها فيهمـا عنصرية بغيضة، لـرأي أن الإباضية لم يتأثروا في أي يوم بجنسـهم، لأنهم هم أنفسـهم يتكونون من عـرب وبربر وفرس وغيرهـم،وأن تحفظهـم إذا تحفظـوا فـي موقف مـع فرقة من المسلمين تخالفهم في المذهب، فذلك راجع إلى أصولهم الدينية فحسب، كما تحتفظ كل الفرق بالنسبة إلى مخالفيها.

والحـروب التي دفـع إليها الإباضيـة في ليبيـا أو تونس أو في الجزائـر كان أكثرهـا مع البربـر لا مع العرب، كمـا أن الحروب التي دفعوا إليها في عمان أو في العراق أو الجزيرة كانت مع العرب.

ومـن هـذا يتضح أن ما يريـد أن يوحى به الأسـتاذ الزاوي من تفريق كلمة الأمة باطل من أساسـه، وأن كلمته : " ولم تسنح لهـم فرصة للثـورة إلا ثاروا " لمزة لئيمة متجنيـة يكذبها الواقع والتاريـخ أشـد تكذيـب، ولعله من المناسـب أن استشـهد في هذا المقـام بالكلمة الرائعة التي علق بها أمير السـيف والبيان سـليمان باشـا الباروني – أعظـم رجل أنجبته ليبيـا في تاريخها الطويل – على " سلم العامة والمبتدئن " قال الباشا الباروني في تعليق له على الأنقلاب السـلمي الذي قام بـه الإباضية بقيادة

أبي الخطاب عبدالأعلى :

" ربمـا يفهم من لا علم له، من مثل هذه الحركة، أن الإباضية يوجبـون الخروج على كل حال، أو يوجبون أن يكون الإمام منهم لا بـد في كل وقت، وغير ذلك، مما هو مـن قواعد الصفرية والأزارقة، والشيعة التي هي كثيراً ما نسبها متعصبوا المؤرخين للإباضية، وليسوا منها على شئ، وكتب الإباضية تشهد بذلك ".

فالإباضيـة ليسـوا منغلقـي الذهـن، فيتجاهلـون العالم الإسـلامي الفسـيح، وما يضطرب فيه من آراء وأفكار واتجاهات وقـوى، ولذلك فعندما يكون السـلطان منهـم يوجبون عليه أن يسير سـيرة العدول في المسـلمين بإختلاف مذهبهم ونحلهم، وإذا كان السـلطان مـن غيرهـم مـن الفرق المسـلمة يتعاونون معه في إخـلاص، مادام محافظا على حدود الله، قائما بدين الله علـى مذهبه، فإذا انحرف عن ذلك فـإن الإباضية لن يتعاونوا مع منحـرف عن دين الله، فإذا بلغ به الطغيان إلى اسـتحلال الدماء والأموال التي حرم الله، فزع الإباضية إلى سيوفهم، فردوا عدوان المعتدين إلا إذا لم يستطيعوا.

وهـذا الموقف هو موقف الإباضية بالنسـبة إلى ولاة الأمور : سواء كانوا أشعرية، أو شيعة، أو معتزلة، أو إباضية، أو من غيرهم من الفرق، فهم أنما يطلبون من ولاة الأمور استقامتهم وعدلهم واهتمامهم بقضية الأمة، ولا يهتمون لمذاهبهم وأجناسهم.

ومـن رجع إلى جميع الثـورات التي قام بها الإباضية في ليبيا والتمس أسـبابها فإنه لن يجـد إلا رداً لعـدوان أو طلباً لحق، ولن

يجد في تلك الأسباب نزاعاً على سلطة أو طلب الدنيا، أو رغبة في مال.

9 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 173 :

" وكان معه – أى مع المعز – جماعة من الإباضية، فهربوا إلى إخوانهم في جبل نفوسة، فلم يبالهم، وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين ".

هكذا يقول الأستاذ الزاوي، لا يخشى الله، ولا يستحى من الناس.

إن المعز أذكى من أن يطمع في أن يكون في جيشه ناس من الإباضية يساعدونه على الظلم، ويقومون معه بالعدوان، ولذلك فهو لم يطالبه بذلك، ولم يرجه منهم، وما حفظ التاريخ أن الإباضية دخلوا في جند مرتزقة، يعملون فيه بأجر دنيوي، إنهم إما أن يحاربوا من أجل إعلاء كلمة الله فلا يتقاضون على ذلك أجراً من غير الله وحينئذ لا يكونون أعواناً لظالم كالمعز، وإما أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم.

أما أن يكونوا آلة يسيرهم طلاب الشهوات وعبيد الدينا من ملوك الأرض فذلك ما لم يسجله عليهم التاريخ في يوم من الأيام قبل الحروب الإيطالية في ليبيا.

أما هؤلاء النفر الذين قبض عليهم المعز – وهو مرتحل إلى مصر – خوفا من أن يقوضوا دعائم ملكه من بعده، فلما وصل طرابلس وجدوا غرة من حرسه، ففروا إلى إخوانهم، واعتصموا بالجبل المنيع الذي صمد للعدوان قروناً متطاولة – أما هؤلاء

النفر فليسوا على الظلم، ولكنهم كانوا من الشخصيات القوية ذات النفوذ، وكان يخشاهم في مغيبه، ولذلك حرص أن يأخذهم معه، فلما هربوا منه إلى الجبل أقض ذلك مضجعه، ولكنه كان لا يستطيع صنع شيء من أولئك الأبطال الذين يعتصمون بالقمم الشماء، فإن الجبل كان ملجأ للأحرار عندما تضيق بهم مواطن الطغيان، وفي هذه الحادثة التجأ إلى الجبل عدد غير قليل من عسكر المعز، من مختلف المذاهب والطوائف، كما ألتجأ إليه زعماء الإباضية.

قال الأستاذ أحمد النائب في تاريخه " المنهل العذب " صفحة100 :

" وسار-أي المعز – إليطرابلس ومعه جيوشه وحواشيه، فهرب منه جمع من عسكره إلى جبل نفوسة. فطلبهم فلم يقدر عليهم."

وهذا نص يكذب زعم الزاوي : أن المعز لم يبال الجند الفار إلى جبل نفوسة ولكنه طلبهم فعجز عنهم.

بقيت الكلمة الأخيرة التي انطلقت من الأستاذ الزاوي كما تنطلق كلمة السب من المغيظ، وهي قوله : " وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين ".

هل فكر الأستاذ الزاوي قبل أن يرمى هؤلاء الناس بالنفاق، وحاسب نفسه وضميره، وعرف الحقيقة التي كان عليها القوم.

إن الحكم بالنفاق على رجل يؤمن بالله ليس أمراً سهلا، فهل يسمح لنا الأستاذ الزاوي أن نستعرض الموقف التاريخي في ذلك

الحين على حسب ما يتصوره الزاوي نفسه، ونرى ما هو الحكم الديني الصحيح الذي يمكن أن نطلقه على أولئك الناس الذين تفصل بيننا وبينهم عشرة قرون.

هذا ملك غرته الحياة الدنيا ونسى أنه بشر ضعيف، وخدعه الشعراء بقولهم فيه :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

هذا الملك المغرور الذي يستمع إلى الكفر الصراح يمدح به، يجهز جيشاً ينفق عليه الملايين من أموال الأمة، ليحارب به المسلمين في مصر وسوريا، فإذا كان ببعض الطريق يفرجمع من هذا الجيش الذي يرغم على محاربة الإخوان في الدين، ويلتجئون إلى حمى منيع لا تصله يد هذا الملك، فما هو الحكم فيهم يأترى ؟

إن الأستاذ الزاوي يحكم عليهم بأنهم منافقون ؟

فما هو الإيمان إذن في نظر الزاوي ؟ إنه استعباد الناس، واستحلال دمائهم وأموالهم، ومشاركة الله في ملكه، والعدوان والبغي، والظلم، فتلك هي أعمال أولئك الذين يرى الزاوي أن الخروج عليهم نفاق، ذلك هو المعنى الذي يسلم إليه منطق الاستاذ الزاوي. ولكننا نظن بالأستاذ الزاوي خيراً، ونحسب أن المقاييس لم تنقلب عنده هذا الانقلاب، ولكنه رجل مخدوع بالمظهر، فهو يحسب أن مخالفة الحكام وعدم الانقياد لهم حتى في ارتكاب المعصية أمر لا يصح، ومن خرج عن طاعة ولاة الأمر – ولو كانوا ظلمة فاسقين – حكم عليه بالنفاق ؛ وهذه

وجهة نظر ذهب إليها كثير من الفقهاء المرتزقة، والسائرين في ركاب الظالمين ؛ يبررون أعمالهم، ويمهدون لسلطانهم.

وقد يكون الأستاذ الزاوي أحد هؤلاء الذين يعجبون بذوي السلطان كيفما كانوا.

لو كان هذا المعز يقود الجيش للجهاد في سبيل الله، ومحاربة أعداء الإسلام لوقفنا مع الأستاذ الزاوي نشيد بأعمال هذا السلطان، ولكن هذه الجيوش موجهة إلى محاربة أمة مسلمة في وطن مسلم، تحكمها دولة مسلمة، ليس سلطانها أسوأ من السلطان الغازي، فكان معقولا أن يحكم على هذا الغازي بالنفاق، وعلى من رغب من جيشه في هذا العدوان ورضى به.

هذه لمزات قليلة أعرضها على القارئ الكريم من كتاب واحد من كتب الزاوي، ولا يزال في الكتاب عدد غير قليل من هذه اللمزات تدق، حتى تكاد أن تختفي، وتستعلن حتى تنطلق في صورة سباب أو شتيمة، وفيما اطلعت عليه من كتب الزاوي التاريخية كثير من هذا التجني على الحقيقة وعلى التاريخ.

ويؤسفني وأنا أناقش الأستاذ الزاوي مناقشة الأخ لأخيه، أن أضطر إلى العنف أحيانا، فإن لؤم بعض العبارات، وإيغالها لها في إيقاد الفتنة، ومحاولتها للتفريق بين عناصر الأمة، لا تترك في صدر الحليم مكاناً للصبر.

لقد كنت أرجو من الأستاذ الزاوي أن يوجه نظر الأمة إلى عدو الإسلام الخارجي، وأن يدعوا إلى تكوين كتلة واحدة من أمة واحدة.

] إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[

وإذا كان الكتاب الكريم يقرر أن جميع الأمم التي استجابت لرسل الله في مختلف أدوار التاريخ هي أمة واحدة، فكيف بالفرق التي استجابت لمحمد صلى الله عليه وسلم.

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذه الأمة التي تنتشر ما بين الهند والمحيط الأطلسي، بجميع أجناسها، وألوانها، وأشكالها، ومذاهب أهلها، لا يخرج منها إلا شخص لم يؤمن بالله أو برسالة محمد، فهو لا يزال مرتهنا بكفره، مرتكساً في رجسه، أو شخص غرته الدنيا فأسلم زمام نفسه للشيطان بعد أن آمن بالله، فانحرف بعمله عن دين الله، فالأمة منه أن يهجر الموبقة، ويعاود التوبة، ويعود إلى صفوف الأمة.

وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يطهروا قلوبهم من المعصية، وآراءهم من السطحية، وأحكامهم من التبعية، وأن لا يحكموا بالخطأ أو الصواب الجماعي دون تفريق بين عمل الفرد ورأي المذهب.

وأن يدرسوا آراء جميع الفرق والمذاهب كما وردت في مصادرها، وأن يزنوها بالميزان الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...

المجتمع المسلم

في الفصول السابقة من هذا الكتاب، قدمت لك أيها القارئ الكريم صوراً حقيقية عن الرجل المسلم الإباضي، انتزعتها من مجرى حياته اليومي، وقد تتبعت سلوكه في أحواله المختلفة، عند ما يكون على رأس دولة مستقلة كاملة الاستقلال، وعند ما يكون قائداً للجيش يدخل معا مع الحرب فينتصر أو ينهزم، وعندما يكون حاكما على قطعة من أرض الوطن، ينفرد بها، أو يرتبط برئيس أعلى، وعندما يكون جندياً بسيطاً يسير مع الجحافل الجرارة لدفاع أو هجوم، وعندما يكون داعية يحمل رسالة الإسلام، وليس له إلا دينه وخلقه وعلمه، وعندما يكون عالماً يغذي عقول الشبيبة بالمعرفة والعلم، وقلوب الكهول بالوعظ والإرشاد، ويذود عن دين الله جراثيم البدعة والخرافة والجهل، وعندما يكون طالباً يتخطى رقاب الزملاء في ميادين العرفان، وعندما يكون عاملا يشتغل بالزراعة أو الصناعة أو التجارة، وعندما كان يكافح في أي سبيل من سبل الحياة، وفي المخطط الذي وضعه الإسلام لأبناء الإسلام ...

قدمت لك صوراً من حياة الرجل الإباضي في جميع ميادين الحياة التي سار فيها أولئك الناس، كأفراد وكمجموعات، وكأمة ...

وقدمت لك صوراً من حياة المرأة الإباضية في سلوكها

المستقل لنفسها، وفي سلوكها في نظام الأسرة، وفي سلوكها في مجتمعها الضيق، وفي سلوكها باعتبارها فرداً من الأمة، وبعد اطلاعك على الصور التي أخذتها لك من واقع الرجل، والصور التي أخذتها لك من واقع المرأة تستطيع أن تبين ملامح المجتمع الإباضي، وهو يشق لنفسه طريق الحياة في موكب التاريخ الضخم.

وبعد أن وضعت بين يديك أيها القارئ الكريم هذه الصور من حياة الأفراد التي منها جميعاً تتكون الصورة الكاملة لحياة المجتمع، بعد هذا أريد أن أتحدث معك عن موضوع تعرفه حق المعرفة، لتقيس عليه تلك الصور التي وضعت بين يديك في الأحاديث السابقة، علك تستخرج من المقارنة بعض الحقائق التي تهم المفكر المسلم.

أريد أن أتحدث إليك عن المجتمع الإسلامي النظيف قبل أن ينحسر عنه ذلك المد الفياض من هداية النبوة والسيرة الرشيدة لخلفاء محمد عليه السلام، فيتطرق إلى ذلك المجتمع فساد الحكم، وظلام الظلم، وانحلال الخلق، وأدران الرفاهية والترف، وما يجر كل ذلك من النكبات..

فما هي الصورة التي يجدها الباحث لذلك المجتمع الذي كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغذاه بهداية الوحي وأخلاق النبوة ؟

ما هي حياة الرجل ؟ ... وما هي حياة المرأة ؟ وما هي صورة المجتمع الذي يتكون منهما ؟

كان الرجل في ذلك العهد الزاهر بطلا في الميدان، يكافح في سبيل الله لنشر الإسلام والسلام، وطالب علم يقبل على حفظ ما تيسر من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، ورب أسرة يشتغل في تجارة أو زراعة ليمون أهله من أشرف سبيل، وعبداً من عباد الله يؤم المسجد ليعبد الله كأنه لم يخلق إلا للعبادة، وأخاً عطوفاً يمتلئ قلبه بمحبة مجتمعه، فيذوب في خدمته، ويضحى بمجهوده له.

ولو أتيح لك أن ترجع إلى ذلك العصر لتبحث عن واحد من أولئك الناس الذين اختارهم الله لصحبة نبيه لما وجدته في غير بعض الأحوال السابقة ...

إنك لن تجده بين المقاهي يتسكع ليقتل الوقت ...

ولن تجده في الحانات يعب مما حرمه الله ...

ولن تجد يطوف على المحال المشبوهة كما تطوف الكلاب على مواطن الجيف ...

ولن تجده يتردد بين دور القضاء والمحاماة يبتكر فيها الأساليب التي يغتصب بها حقوق الناس.

ولن تجده يتخذ كل الوسائل في المعاملات لتروج تجارته، وتنمو أرباحه، وتتكدس عنده الأموال، وهو في ذلك لا يسأل عن الحرام والحلال ...

ولن تجده يسعى بين إدارات الشركات يحتال عليها ليبتز منها الأموال التي تختلسها تلك الشركات من الثروة الطبيعية

للأمة، ولن تجده يصارع البنك والبورصة ويكد فكره طول النهار وزلفاً من الليل في تدبير المقالب ليزيد إلى المال الحرام الذي يملكه مالا جديداً، فإذا رجع إلى بيته رجع مكدوداً ميت الروح، فأوى إلى المضجع ونام فيه نوماً ثقيلا طويلا، ولا يستيقظ منه إلا بعد أن يرتفع الضحى ليبدأ الاستعداد للعمل من جديد، وهو في كل ذلك لا يذكر ربا ولا يؤنس أهلا، ولا يؤدى لهم واجباً ...

ولن تجد في المجتمع الذي كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحاكم الذي يتعالى على الناس، ويحتجب دونهم، ويحسب أن له ميزة على أفراد الأمة، ويظن أن هذا المنصب الذي أعطى له بأمانة الله يخوله حق التصرف في أموال الناس وأموال الدولة بغير حق.

ولن تجد في ذلك المجتمع هذا الموظف الذي تراه غارقاً إلى أذنيه في كرسي هزاز، يقرأ جريدة سيارة،أو ينتفخ لاستقبال المتزلفين، أو يحادث زملاءه في العمل، ومصالح الأمة ضائعة، ومشاكلهم متشابكة، والتقارير المرفوعة إليه تثقل الرفوف وتنوء بها الخزائن...

إنك لن تجد في ذلك المجتمع هذه الصور، وأشباه هذه الصور.

إنك لا تجد الغني الذي يبطره الغنى، ولا الفقير الذي يذله الفقر، ولا تجد الحاكم الذي يشرف بالمنصف، ولا رجل الشعب الذي ينحط لأنه لا يحتل كرسياً في جهاز الدولة ؛ إنهم إفراد متساوون فيما بينهم، " تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم" لا يرفع بعضهم عن بعض

إلا عمل خير يتمنى كل واحد أن يكون السابق إليه، ولا ينحط بعضهم عن بعض إلا بتقصير في أمر، أو أمر الأمة يصدر من أحدهم، فيحمد الله باقيهم أن حفظه الله منه.

إن أعلى وظيفة في الدولة لا تميز صاحبها عن بقية الناس، ولا تعطيه أي حق لم يكن لغيره من أفراد الأمة، ولا يرتفع بها عن أدنى رجل من المسلمين، ولذلك فالمسلم عندما يتولى منصباً لا يزدهيه هذا المنصب، وعندما يقال لا تؤسفه الإقالة ؛ بل لقد كانت المناصب زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الخلافة الرشيدة قياماً بمهام عارضة، يندب إليها أى فرد من المسلمين، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز جيش أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أي واحد من أصحابه بقيادة هذا الجيش، حتى إذا تمت المهمة ورجع الجيش منها أصبح القائد فرداً عادياً كسائر الناس، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز آخر، اشار صلى الله عليه وسلم إلى فرد آخر يتولى القيادة، وأصبح القائد الأول جندياً عادياً، يندفع إلى الميدان لحماية الرسالة العظمى دون أن يشعر أنه أهين بعزل، أو يشعر الثاني أنه أكرم بالتولية، وهكذا في بقية الأعمال، فعندما تحتاج الأمة إلى عامل، أو قاض، أو معلم، أو إمام، أو غير ذلك، يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى واحد أو جماعة من أصحابه ليقوموا بذلك، وهو حين يسند إلى واحد منهم بعض تلك الأمور لا يوليهم فخراً ليس لبقية الأمة، ولا يعطيهم عن عملهم ذلك أجراً مادياً ليس لإخوانهم مثله، ولذلك فهم لا يشعرون أنهم اختيروا أو فضلوا عن غيرهم من المسلمين، إنها مهام الأمة يجب أن يقوم بها أي فرد من أفرادها،

ولا يراعي في ذلك إلا الاستعدادات الفطرية، والكفاءات العلمية والعملية، ولكنهم مع ذلك متساوون، لا تعاظم ولا أبهة، ولا ترف ولا استغلال.

وليس موقف المرأة المسلمة في ذلك الحين بعيداً عن موقف الرجل في الميدان الذي هيئت لها طبيعتها الأنثوية، فهي تقف، دائما حيث يطلب منها واجب المسلمة أن تقف، لا تطفى بها غرامة القوة فتدفع الرجل عن مقامه لتقوم فيه، ولا يقعد بها الضعف إلى الاستسلام والإهمال والجهل ...

تتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات والأعمال، التي ساوى فيها بينهما الدين القويم، والطبع الكريم، وتنفرد بالحقوق والواجبات والأعمال، التي هي من خصائص الأنثى، وتبتعد عن الحقوق والواجبات والأعمال التي هي من خصائص الرجال ...

تربط بين أفراد الأسرة بنبل العاطفة، وتغمرهم بالحنان، وتملأ أرجاء البيت بالمحبة، وتعمر مساجد الله بالتقوى، وتغترف العلم من منابعه الصافية باستقامة الخلق.

وقد ترافق الرجل في مواقفه العنيفة لتخفف عنه الألم، وتداوي منه الجراح،وتبعث في نفسه الحماس، وتمده بروح الجلد والقوة والكفاح، وقد تساعده في عمله اليومي إذا كان ذلك لا يرهق أعصابها، ولا يذيل حجابها، ولا ينافي طبيعتها، ولا يمتص منها عناصر المحبة والعطف والحنان ...

أما هذه المواقف التي تصبح فيها المرأة مشاكسة، تنازع الرجل كتفاً إلى كتف، لتأخذ منه موقفه، وتقوم بعمله، فليست موجودة في ذلك المجتمع النظيف ...

إنك لن تجد فيه المرأة التي تسلم أبناءها كل يوم إلى خادمة، لأنها حين تقوم من النوم تستقبل المشط والمرأة وما معهما من وسائل الزينة، فتقضي بينهما وقتاً غير قصير، حتى إذا أكملت زينتها اختطفت محفظتها الأنيقة، ثم سارت تتهادى حتى تصل إلى مقر العمل، في تصريف شؤون الدولة أو شؤون الشركة، فإذا انقضى الوقت مرت على المطعم أو رجعت إلى ما هيأته لها الخادمة، فتناولته على عجل، ثم استقلت على الفراش لتريح الجسم المكدود، وما تفتأ تشعر بالراحة حتى تعود إلى المرآة والمشط وأداة الزينة، تخرج إذا كان المساء أن ينتهي أوت إلى دار من دور اللهو بإسم التسلية، وكثيراً ما تكون هذه التسلية حفلة للرقص، تعرض فيها خصرها الطيع على سواعد المعجبين، فإذا انقضى الليل أو كاد، رجعت إلى البيت مكدودة قد نضجت فيها منابع الحنان، وحب الأسرة ولم يجد منها الزوج والأبناء غير هيكل من عظم، قد امتصت الشوارع منه خصائص الأنوثة من الجمال والحب والحنان، فلم يبق فيها معنى للزوجة ولا روح للأم.

هذه الصورة وأشباهها لن تجدها في ذلك المجتمع النظيف، إن للمرأة رسالة في الحياة، وللرجل رسالة، وكما لا يحق للرجل أن يزاحم المرأة على رسالتها، كذلك لا يحق للمرأة أن تزاحم الرجل على رسالته، إنه قد يطلب من أحدهما أن يساعد الآخر في ظروف خاصة تستدعيها طبيعة الحياة، أما أن ياخذ أحدهما أعمال الثاني، ويجلس في مكانه، فذلك مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها ولعل من أعاجيب الحياة الحاضرة التي انطلقت فيها الشياطين تجوس خلال الديار أن تجد أفراد أسرة

يشتغلون جميعاً ذكوراً وإناثاً في دوائر الحكومة، أو الشركات، أوا لمصانع، بينما تجد أفراد أسرة أخرى يجتمعون على البطالة، ذلك ان الفتاة المسترجلة في الأسرة الأولى، قد سبقت الشاب فجلست مكانه، وحرمت الأسرة الثانية من حقها في العمل باسم حقوق المرأة في العصر الحاضر ...

لقد كان المجتمع المسلم يسوده التضامن والتعاون والتساند، ويتساوى أفراده في الحقوق والواجبات حسب الطبيعة البشريةالتي خلقهم الله عليها، وتتكافأ الفرص بين جميعهم، فلا استغلال ولا أثرة، ولا عدوان.

ومع أن ينابيع الثروة في ذلك الحين، كانت أضأل منها في العصور التالية جميعاً، فقد عاش ذلك المجتمع المسلم لا يشعر بحرمان، ولم تنشأ فيه غريزة الاكتناز، ومحبة الترفه والبطالة والإثراء من أقرب سبيل، إلا بعد ما انقضت الخلافة الرشيدة، وإنه لعجب حقاً أن تجد المجتمع المسلم في عهد الصديق أو عهد الفاروق رضي الله عنهما، يسوده الرضا والطمأنينة والسعادة.

فلما نشأت فكرة الاكتناز، وبدأ أصحاب السلطة يميلون إلى الدعة والاستغلال والتشبه بالدول غير المسلمة، بدأ التذمر والسخط، وعدم الرضا، ثم النقد والاندفاع والثورة، ثم بدأ التقلقل الاجتماعي والتغلغل السياسي، رغم فيضان الأموال، واتساع موارد الثروة بين الناس، ثم انحرفت الموازين الدينية، والمقاييس الأخلاقية عن الاتجاه الإسلامي، فاصبحت أحكام الشريعة وسائل للحساب لا للسلوك، وأسبابا للعقاب لا للحق،

وركائز للانتقام لا للعدل، فلا يهتم ولاة الأمر بمخالفة الناس لدين الله، إلا إذا أرادوا الانتقام من شخص لأنه لا يريد أن يجرى معهم في الفلك الذي هم فيه يسبحون، ثم ازدادوا خطوة أخرى في الابتعاد عن دين الله وأحكام شريعته، فلم يعودوا يأبهون إلى الحلال والحرام من المال، فكما أباح بعض الأفراد لأنفسهم كل الطرق لجمع المال، كذلك أباحوها للدول، ولم يعد يهمهم أن تجمع ميزانية الدول من الضرائب والمكوس ؛ وأن يدخل فيها ما يأتي عن طريق الربا والبغاء، بيع الخمور، ومصادرة الأموال التي لا يبيح الشرع مصادرتها ؛ ومن غير ذلك من الأموال التي لا تجد باباً في ميزانية الاقتصاد الإسلامي. وماذا يضير الدول الإسلامية لو أنها طهرت أرضها من الخمر ومن الربا ومن البغاء، ومن مصادرة الأموال بغير حق، وما إلى ذلك مما يبعد عن شريعة الله.

فهل تخشي من غضب السكارى ؛ أم من غضب الفاسقين ؛ أم حنق المرابين !

لقد فتنت بعض الدول الإسلامية اليوم بأنظمة الغرب أو أنظمة الشرق، وجرى بعضها وراء هؤلاء، وبعضها وراء أولئك، وأجروا على الشعوب الإسلامية عدداً من التجارب أخفق أغلبها، فلماذا لا تجرى تجربة جديدة ؛ فتعود إلى أنظمة الإسلام في السياسة والحكم والاقتصاد.

لماذا لا نعود إلى هذا المنهج القويم الذي وضعه عالم الغيب والشهادة ؟..

هل نخشى أن نوصف بالرجعية ؟ وماذا يهم مادمنا نستطيع

أن نضفي على مجتمعنا السعادة والاطمئنان.

لقد حاولت جهد المستطاع أن أضع بين يديك صورة مصغرة من المجتمع الإسلامي النظيف في الصدر الأول من تاريخ هذه الأمة العظيمة المجيدة، ويسرني لو أن القاريء الكريم قارن الصور التي رآها للمجتمع الإباضي في عصوره المختلفة إلى صور ذلك المجتمع الإسلامي الأول،وأنا على يقين أنه سوف يجدها صورة واحدة لمجتمع واحد، وإن اختلفت بهما العصور ...

إنني وأنا أختم هذا الكتاب، أحمده سبحانه وتعالى على ما أولاني من نعمة، ويسر لى من خدمة، وسهل لى من أسباب، وفتح لى من أبواب..

وأصلي وأسلم على سيد المرسلين وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأتجه بشكري وتقديري إلى الأخوة الذين أمدوني بالمساعدة، وأخلصوا لي النصيحة، وكشفوا لي عن العقبات، ومهدوا بين يدي السبل لإنجاز هذا العمل، الذي أرجو أن ينفع الله به قلوباً تحب الخير، وضمائر تستهدف الحق، ونفوساً تحن إلى الهداية والتوفيق ...

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..